

الفصل الأول

الحياة السياسية في دمشق

في ظل الإدارة الحميدية

أولاً: ولاية مدحت باشا:

- أهم أعماله

ثانياً – ولاية نازم باشا:

- أهم أعماله

ثالثاً: الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التجارية:

١. الامتيازات الفرنسية.

٢. الامتيازات الإنكليزية.

٣. الامتيازات الألمانية.

٤. أشهر امتيازات الخطوط الحديدية في دمشق بين عامي (١٨٧٦-١٩٠٩م)

(١٩٠٩م)

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م):

أ- مشكلة الصرب والجبل الأسود.

ب- إعلان الحرب وأهم مجرياتها:

- أهم أحداث الحرب.

- معاهدة سان استفانو (٣ آذار ١٨٧٨م).

خامساً: الحرب اليونانية العثمانية (١٣١٤هـ-١٨٩٧م):

- أهم أحداث الحرب.

سادساً: مجلس المبعوثان:

• الدستور:

- أ- الدستور القديم.
- ب- الدستور الجديد (القانون الأساسي).

• المجلس العمومي:

- أ- تأليف مجلس الأعيان.
- ب- تأليف مجلس المبعوثان.

سابعاً: أهم الثورات والحركات القومية في تلك المرحلة:

- أ- فتنة الأرمن.
- ب- إرهابات وأحداث الفتنة.
- ج- المذابح الأرمنية في العهد الحميدي: أشهر هذه المذابح.
- د- ثورة الموحيدين.

ثامناً: الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة:

- أ- جمعية الاتحاد والترقي: أهدافها، وبرنامجه السياسي.
- ب- جمعية الإخاء العربي العثماني: أهدافها.
- ج- جمعية بيروت السرية: أهدافها.

أولاً: ولاية مدحت باشا^(*):

بلغ عدد الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الشام فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، أربعة عشر والياً، على مدار ثلاثة وثلاثين عاماً من حكمه، ومنهم من أعيد توليته مرتين أو ثلاث خلال الفترة المذكورة. من أمثال الوالي نازم باشا الذي ولي على الشام ثلاث مرات متفرقة (١٣١٢هـ/١٨٩٥م - ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م - ١٣٣٠هـ/١٩١١م)^(١).

وكان لدمشق النصيب الأوفر من الولاة المصلحين الذين توافرت فيهم مزايا العدل وحسن الإدارة، والترفع عن الأغراض والمطامع الشخصية، وأشهرهم في هذا المجال الوالي مدحت باشا الملقب (أبو الأحرار).

تولى مدحت باشا ولاية سورية سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وكان قد سبق له تسلم منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية لمرة: المرة الأولى سنة (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) في عهد السلطان عبد العزيز^(٢)، والمرة الثانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، حيث نجح في إعلان القانون الأساسي (الدستور العثماني) في العام نفسه، وقد كان له الدور الكبير في صياغته هو

(*) مدحت باشا (١٢٣٨-١٣٠١هـ - ١٨٢٢-١٨٨٣م): مدحت باشا (أو أحمد مدحت) بن حاجي حافظ أشرف أفندي أبو الأحرار، العثماني، ولد في اسطنبول وكان أبوه قاضياً، تقلب في الوظائف حتى كان والياً على النانوب (الطونة). وقضى على ثورات البلغار هناك، ثم انتقل إلى الآستانة، رئيساً لمجلس شورى الدولة. وعين والياً على بغداد (١٢٨٦-١٢٨٨هـ - ١٨٦٩-١٨٧١م)، ودعي إلى الآستانة معزولاً، فما لبث أن تولى منصب الصدارة العظمى، وأصدر الدستور العثماني في أواخر (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، ولم تنفج وجهات النظر بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني في أمور سياسة الدولة، فجرد من الوزارة وضيق عليه، فسافر إلى أوربة واستقر مدة في لندن. إلى أن صدر أمر بتعيينه والياً على الشام، ونقل منها إلى أزمير، حيث اعتقل وحوكم بتهمة المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) وحكم عليه بالإعدام، ثم اكتفى السلطان بنفيه إلى قلعة الطائف في الحجاز، وفيها قتل بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني بعد بضع سنوات. غير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩، ط١، ج٧، ص ١٩٥.

(١) المنجد، صلاح، ولاية مدينة دمشق في العهد العثماني، دمشق ١٩٤٩، ص ٩٤-٩٥.

(٢) البستاني، سليمان، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق: خالد زبادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ط١، ص ١٣١-١٣٥.

ومجموعة من الأحرار أمثاله في الدولة، وبه استحق لقب أبي الدستور والحريات^(١)، ولكن ما لبث أن عزل عن هذا المنصب سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م)، وذلك لعدم التوافق بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني، وللظروف التي لحقت بتعطيل الدستور سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م) من مضايقات للأحرار والمفكرين الذين كان لهم الدور في صياغته وعلى رأسهم مدحت باشا، وأقيل الأخير من منصب الصدارة العظمى وتم إبعاده إلى أوربة وذلك بسبب انتشار إشاعة مفادها أن مدحت باشا يطمح بأن يكون رئيس جمهورية في البلاد، وهذا ما أثار مخاوف وقلق السلطان عبد الحميد الثاني فأمر بإبعاده ونفيه إلى أوربا في العام نفسه حيث انتهى به المقام في لندن فأقام فيها مدة من الزمن^(٢).

تخوف السلطان عبد الحميد الثاني من الترحيب الكبير الذي حظي به مدحت باشا في أوربا، فتظاهر بالعفو عنه والحاجة إلى خدماته، فاستدعاه إلى استانبول وقام بتعيينه والياً على الشام سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وقد سبقته شهرته إلى تلك البلاد، فهو الوالي المصلح الحازم صاحب فكرة الحرية والدستور، تلك الفكرة التي دفع من أجلها حياته واستحق بعد مماته عليها لقب أبي الأحرار^(٣).

وكان قد سبقه في هذا المنصب الوالي أحمد جودت باشا لمدة عام فقط، وأهم ما اشتهر به هو بث روح العلم الاختياري في المدارس، ولهذا فقد عد المؤسس لكثير من المدارس في دمشق مما شجع الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس في عهده^(٤).

(١) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٢١٥-٢١٧.

(٢) مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، تعريب: يوسف كمال حنافة، مصر، ١٩٠٦، ط١، ص ٢٩-٣٠.

(٣) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، بيروت، ١٩٨٠، ط٢، ص ٥٣.

(٤) الحصني، محمد أديب آل نفي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق، قدم له: د. كمال سليمان الصليبي، ٣ أجزاء، ج١، بيروت، ١٩٧٩م، ط١، ص ٢٧١-٢٧٢.

أهم أعماله:

على الرغم من المدة القصيرة التي استلم فيها مدحت باشا ولاية الشام والتي لم تتجاوز العام من سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) حتى سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م)، فقد كان له الكثير من الأعمال الحميدة فيها^(١).

فقد قام بتأسيس مكتب الصنائع وتأسيس دار عمومية للكتب وذلك خدمة للمعارف وتعميماً لنشرها في الولاية، وعن هذا المجال يقول في مذكراته: ((وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشى بينهم الجهل ما عدا العلماء، وكانت مدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدماً يلمس باليد وليس للحكومة سوى بعض المدارس الابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا، فقدمت إصلاح المدارس على كل إصلاح وشكلت جمعية من العلماء وجمعت الإعانات من ذوي المروءة فأصلحت بها الجوامع وجعلتها مدارس للأحداث وأدخلت في كل مدرسة ١٥٠ تلميذاً أو ٢٠٠ تلميذ وقررت أن يجازى ولي الطفل إذا بلغ ولده السادسة ولم يرسله إلى المدرسة، وخصصت عدا الإعانة جزءاً من إيراد الأوقاف وعممت المدارس في الملحقات وكان أهالي الشام يميلون إلى بث روح التعليم فألفوا جمعية سموها (جمعية المقاصد الخيرية)، وانتشرت شعبها في أنحاء الولاية))^(٢).

قام بإنشاء سوق عظيم نسب إليه وهو سوق مدحت باشا المعروف باسمه حتى الآن، ووسع الكثير من شوارع المدينة^(٣)، ويقال إنه بعد وصوله إلى دمشق أراد توسيع الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية باتجاه الشرق مسافة ميل تقريباً. فعارضه مالكو العقارات القائمة على جانبيه من مكاتب ومخازن وحوانيت، ملتجئين بقاء الوضع على ما كان عليه، ولم يهض على ذلك سوى أيام قليلة حتى فوجئ الأهليون ليلاً باشتعال النار في عدة نقاط من الشارع اشتعالاً قضى تلك الليلة على ما بقي في تلك العقارات من بضاعة وأموال لم

(١) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٢) مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، مرجع سابق، ص ٣٦-٣٧.

(٣) الحصني، منتخبات نواربخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

يمكن أصحابها من نقلها وإنقاذها ثم أعيد تنظيم الشارع بضعف عرضه السابق وأعيدت الأبنية إلى جانبيه بأحسن مما كانت عليه وسمي الشارع منذ ذلك الحين سوق مدحت باشا وقد شاع فوراً بين الخاصة من الشعب أن الحريق قد جرى بأمر من الوالي بغية التنظيم السريع^(١).

وتشكلت في زمانه دوائر العدلية والبوليس والدرك وهو المؤسس لها^(٢)، فيقال إنه عندما رأى دمشق مكتظة بالجوامع والمساجد أمر بتحويل جامع (دنكز) الفخم ببنائه واتساعه وحسن موقعه إلى مدرسة عسكرية منفذاً أمره من دون تأخير، ودعا على التوجهاء دمشق وأقنعهم أن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدرسة من أجل تعليمهم العلوم العسكرية والمدنية معاً، وبذلك ييسر لهم الاحتفاظ بوجاهتهم وكرامتهم وحكم بلادهم بالطرق الدستورية، فلبى بعض الوجهاء هذه الدعوة وكان في مقدمة خريجي المدرسة العسكرية هذه علي رضا باشا الركابي^(٣)، وقد أحب العرب وقربهم إليه، وعينهم في المناصب العالية، حيث كان يفضلهم على غيرهم لمعرفة أحوال بلادهم ويميل إلى فكرة إعطاء هذه البلاد استقلالها.

ويقول صاحب كتاب منتخبات تواريخ دمشق: ((إنه لو أتيح لمدحت باشا فرصة المقام في دمشق لمدة أطول فقد كان ينوي القيام بكشف نهر بردى من ساحة المرجة إلى باب توما وجنائنها، وهدم الأبنية التي على أطرافه وتزويده بشارعين عظيمين عن يمينه وعن شماله، وتطهير النهر من الأوساخ التي هي جرثومة الجراثيم القتالة للدمشقيين ولو تم الأمر لكانت لدمشق صورة مغايرة لما هي عليه في وقت لاحق من

(١) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٨٠م، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(★) علي رضا الركابي (١٢٨٢-١٣٦١هـ - ١٨٦٦-١٩٤٢م): علي رضا باشا ابن محمود بن أحمد بن سليمان الركابي من رؤساء الوزارات مولده ووفاته في دمشق، تعلم بها، وتخرج بالمدرسة الحربية العثمانية، وتولى وظائف عسكرية، وعين رئيساً للوزارة السورية في دمشق فترة الحكومة العربية بزعامة الملك فيصل سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) وتولاها توفي في دمشق.

الفرفور، محمد عبد اللطيف صالح، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، ١٩٨٧، ط١، ص ٢٠٩.

(٣) الحكيم، مرجع سابق، ص ٥٤.

تلك الفترة^(١). لقد أحب مدحت باشا نشر العلم بين مختلف الطبقات الاجتماعية حيث زادت المكاتب العالية في زمانه وجعل للمعارف ورجالها رونقاً وللدأب سوقاً (فلما دعا مدحت باشا وجهاء دمشق وبعض الزعامة الشعبية إلى اجتماع حضهم فيه على تزويد أولادهم بالعلوم على اختلاف أنواعها، ولما عاتبه بعدئذ الذين لم تشملهم الدعوة أجابهم إنكم تتمتعون بقسط وافر من الثقافة وحسن التربية بفضل حياتكم البيئية ووفرة المدارس التي تبعثون بأبنائكم إليها فلستم بحاجة إلى الحض والنصيحة ولكنني أقول لكم إن ثقافتكم مهما نمت وعلت لا تضمن لكم السعادة والهناء، إذا كانت أكثرية الشعب متأخرة عن ركب الحضارة)^(٢).

يدلنا هذا على حرص مدحت باشا الكبير على نشر المعرفة والعلم بين جميع طبقات المجتمع على حد سواء. لقد اضطر مدحت باشا أن يتخلى عن ولاية دمشق بعد أن طبق مفاصل الإصلاح في أرجائها الواسعة على أسرع ما يمكن. حيث أنشأ الطرق والمكاتب والمدارس، ونشط الصناعات والزراعة، وضرب على أيدي المرتشين، ونشر الحرية الشخصية وبذلك كان قدوة في الإصلاح والمثابرة وكان صاحب السمعة الطيبة والصيت الذي سبقه إلى أي مكان يذهب إليه^(٣).

ثانياً: ولاية حسين ناظم باشا:

تولى ناظم باشا ولاية دمشق ثلاث مرات متفرقة أولاها كانت سنة (١٣١٣هـ/١٨٩٥م) والمرة الثانية سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) أي بعد سقوط حكم السلطان عبد الحميد الثاني، واستمرت لمدة عام فقط، ثم للمرة الثالثة سنة (١٣٣٠هـ/١٩١١م)، حيث استبعد عن الولاية في العام نفسه، وكان الوالي الثالث عشر خلال مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني^(٤).

(١) الحصن، منتخبات نوارخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٢) الحكيم، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٥.

(٣) كرد علي، محمد، عخطط الشام، بيروت، ١٩٧٠م-١٣٩٠هـ، ٦ أجزاء، ج ٣، ص ١٠٣.

(٤) المنجد، صلاح الدين، ولاية دمشق في العهد العثماني، دمشق، ١٩٤٩م، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥.

كان ناظم باشا خير من تولى إدارة ولاية سورية أو بلاد الشام كما قيل عنه فكان فضلاً عن عدله وحزمه ونزاهته مثلاً حياً لإنجاح المشاريع العمرانية^(١)، وسبق ناظم باشا في ولاية دمشق الوالي حسن رفيق باشا سنة (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، الذي كان قبلاً والي بغداد السابق. في أيامه شيد في الشام مكتب لتخريج معلمين لمدارس الحكومة، واهتم بإعادة عمارة الجامع الأموي، وعمر طريق الأربعين في جبل قاسيون، كما تم في عهده تمديد الخط الحديدي بين مزيريب والشام، ثم بين بيروت ودمشق^(٢)، وكان ناظم باشا ناظر الضبط أي مدير الأمن العام بدار السلطنة قبل أن يصبح والياً على دمشق، وأهم حدث في عهده هو واقعة الأرمن التي أرادوا فيها اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، ولقد ساعد في كشف من وقف خلف هذه العملية وكشف نوايا الأرمن في الانقلاب على الدولة^(٣).

أهم أعمال ناظم باشا:

كما أسلفنا استلم ناظم باشا ولاية دمشق خلفاً للوالي حسن رفيق باشا ولقد قام فور تسلمه الولاية بعدة إصلاحات، فعمل على بث روح المدنية في العشائر والبدو وأسكنهم في الأراضي الخالية والمهجورة والمتروكة، ومن أشهر أعماله العمرانية التي زادت من جمال ورونق مدينة دمشق هو: إنشاءه لحي المهاجرين^(٤) بسفح جبل قاسيون وقد بنى لنفسه داراً في هذا الحي^(٥) وهي القصر الجمهوري

(١) الحكيم، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٤) حي المهاجرين سمي بهذا الاسم عندما أنزلت السلطة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر في سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحية من هاجر من مسلمي أفرطيش (كرت) في حي قسمته إلى أقسام منظمة. أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق علي جميل نعيسة، ط٢، ١٤٠٣/١٩٨٣م، دمشق، ص ٤٠٢. وانظر محمد بن طولون، الفلاند الجوهري في تاريخ الصالحية، القسم الأول، تحقيق محمد أحمد دهمان، ص ٧٠-٧٦.

(٥) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

اليوم، وكانت مقر المفوضية العراقية^(١). وقد سمي الشارع الموصل إلى قصره بشارع ناظم باشا وما يزال حتى اليوم.

وهكذا ازدادت أسعار الأراضي في هذه المنطقة خاصة بعد أن شقت فيها الطرقات ووصلها خط التراموي، وازداد عدد الدمشقيين الذين قاموا بشراء أراضي في هذا الحي وبناء بيوت لهم فيها بعيداً عن التزاحم والضغط السكاني المتزايد في المدينة القديمة^(٢).

ومن أعماله العمرانية أيضاً بناؤه دائرة الحكومة أو ما يسمى (السراي)، كما أنشأ أيضاً مستشفى الغرباء بمقبرة البرامكة وهي المشفى الوطني اليوم وأنشأ له صيدلية خاصة. ومن أنفع أعماله وأجلها في مدينة دمشق هو قيامه بجلب ماء عين الفيحة عبر أقيية تحت الأرض إلى الخزان الذي أقيم في الصالحية وفي حي المهاجرين، وقسم المياه على أحياء المدينة كلها بنسبة هندسية بحيث لم يحرم من شرب المياه قريب أو بعيد غني أو فقير، ويقول صاحب كتاب الريف السوري وصفي زكريا: ((لقد بقي أهالي دمشق يشربون ماء بردى المكشوف طوال عشرات القرون دون أن يستفيدوا من ماء الفيحة الكوثرى حتى بعث الله لهم بالوالي العثماني الشهير حسين ناظم باشا فقام بمشروعه الجبار وأعني به مشروع جر ماء هذا النبع إلى مدينة دمشق حيث أنقذ أهلها من الأمراض والعلل التي كانت تؤدي بحياة المئات منهم كل عام من جراء تلوث مياه نهر بردى))^(٣).

أضف إلى إنجازاته أيضاً مشروع إنشاء خط البرق ما بين دمشق و المدينة المنورة، وقد وضع له نصباً تذكاريّاً وسط ساحة المرجة لا يزال قائماً حتى الآن^(٤). وساهم أيضاً في إنجاز مشروع الخط الحديدي الحجازي الذي أمر ببناؤه السلطان عبد الحميد الثاني، ولقد ساعد هذا الخط على ربط الإقليمين الشامي والحجازي

(١) المنجد، مرجع سابق ص ٩٤.

(٢) الحكيم، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) زكريا، وصفي، الريف السوري، محافظة دمشق، الجزء الثاني، المطبعة العمومية بدمشق، (١٩٧٥-١٣٧٦م) ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٤) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

ببعضهما البعض^(١)، وهو الذي سقّف الأسواق الكبيرة في دمشق بألواح التوتياء وذلك لأنها كانت تتعرض للحريق في كثير من الأحيان لأنها كانت مصنوعة من الخشب والقصب^(٢)، وقام بتوزيع الأراضي المتروكة بأطراف الولاية على طوائف المهاجرين من البلاد الإسلامية كافة وهياً لهم السبيل لإعمارها وبنى لهم عدة قرى لإيوائهم فيها^(٣) وكان منهم مهاجرو جزيرة كريت^(٤)، الذين أنشأ لهم حياً خاصاً في أعلى موقع في دمشق وأُنقأها هواء، وافتتح الكثير من المدارس الابتدائية والإعدادية في ألوية سوريا وأقضيتها، وساهم أيضاً في ترميم الجامع الأموي بعد أن تعرض للحريق سنة (١٣١١هـ/١٨٩٤م)، حيث صدر أمر من السلطان عبد الحميد الثاني يقضي بإعادة بناء الجامع على صورته الحالية^(٥).

ولم يكتفِ بذلك بل قام بترميم جامع الصحابي الجليل خالد بن الوليد في حمص، وجمع له الأموال اللازمة، لكنه لم يكتمل في أيامه^(٦). ومن أعماله الحسنة أيضاً موقفه تجاه الطائفة الرومية في الديار الشامية، حيث طالب بأن يكون لهم بطريرك عربي وطني حفظاً لحقوقهم القديمة التي كانوا محرومين منها مدة طويلة وقد رجعت إليهم في زمنه^(٧)، ويذكر صاحب كتاب تاريخ

(١) الحصني، مرجع سابق ص ٢٧٧.

(٢) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) جزيرة كريت: (أو أفرطس) كما في المراجع العربية القديمة، جزيرة في البحر الأبيض المتوسط الشرقي تقع بين جنوب اليونان وساحل الأناضول، وأغلب سكانها من اليونان والأقلية التركية، استولى عليها الفاتح سنة ١٦٤٥، وبقا فيها ٢٤٠ سنة، انضمت ١٩١٧ إلى اليونان. أحمد عطية، القاموس السياسي، ص ٩٧٣.

(٥) محمد، علي باشا، الرحلة الشامية، سلسلة التواريخ والرحلات، دار الراصد العربي، بيروت-لبنان، (١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ص ٢٨٦.

(٦) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥، العظيمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، دمشق، دار الفكر، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ٣٥٧.

(٧) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

سورية الديني والديني المطران يوسف الدبس^(١) في معرض حديثه عن بطاركة أنطاكية للروم في القرن التاسع عشر، أنه تعاقب العديد من البطاركة غير العرب و آخرهم كان سنة ١٨٩١ البطريك "سيريدون" من قبرص والذي استمر في منصبه ثماني سنين إلى أن خلفه السيد البطريك "ملاطيوس الثاني بن موسى" دوماني من دمشق، وذكر أنه مازال جالساً على كرسي البطريكية حتى وقت كتابة الكتاب، وأرخه سنة ١٩٠٤. وكان متخذاً دمشق كرسياً للبطريكية^(٢). ومن أعماله أيضاً إنشاءه الثكنة العسكرية الموجودة اليوم في البرامكة (الجامعة السورية اليوم)، وأنشأ أيضاً سوق الخجا، وتم في عهده أيضاً تحديد أكثر دوائر الحكومة في الأقضية^(٣).

شهدت العلاقات الألمانية العثمانية أوج تطورها في عهد الوالي نازم باشا حيث توجت هذه العلاقات بزيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني^(٤) إلى دمشق سنة ١٨٩٨م وذلك بعد اتصالات دبلوماسية استمرت ما بين الأربع إلى الخمس سنوات تمهيداً لهذه الزيارة، ولقد كان من أهم إنجازات هذه الزيارة هو نجاح الإمبراطور الألماني في الحصول على امتياز مد خط الحديد الحجازي السابق ذكره، فذهب الإمبراطور من القسطنطينية إلى القدس ومنها إلى دمشق حيث وضع الأسس لنفوذ ألماني جديد في بلاد الشام. وقد حاول إظهار مشاعر المحبة والود تجاه السلطان والإسلام حيث قال

(١) المطران يوسف الدبس (١٢٤٩-١٨٣٣-١٩٠٧م): يوسف إلياس بن يوحنا الدبس، مؤرخ وباحث من المشغلين بالتربية والتعليم، كان رئيس أساقفة بيروت، ولد وتوفي في لبنان، أنشأ مدرسة الحكمة في بيروت، كتب تاريخ سوريا في ثمانية أجزاء. كتاب الأعلام، خير الدين الزركلي، ج ٨، ص ٢١٩.

(٢) الدبس، يوسف، تاريخ سورية الديني والديني، عشرة أجزاء، الجزء الثاني، إشراف: نظير عبود، دار نظير عبود، ١٩٩٤، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) غليوم الثاني: وهو الإمبراطور الألماني وليهم الثاني (١٨٥٩-١٩٤١) ارتبطت سيرته بالعالم العربي والإسلامي منذ (١٨٩٨) حين قام بزيارة إلى القدس ودمشق، وأهدى كرمز للصداقة ضرباً من المرمز لكسوة قبر صلاح الدين بدمشق سنة (١٩٠٥)، أعلن تأييده لاستقلال سيادة مراكش ضد الضغط الفرنسي والإسباني. عقد تحالفاً مع كل من الدولة العثمانية والنمسا في الحرب العالمية الأولى. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، ص ٨٣٧.

في خطبته التي ألقاها في دمشق: فليطمئن صاحب الجلالة السلطان وليطمئن معه
الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلوونه لأنه الخليفة، إلى أنهم سيجدون في
إمبراطورية أمانية الصديق الدائم لهم، ثم اتجه في تلك الزيارة إلى قبر صلاح الدين^(١)
ووضع عليه إكليلاً من الزهر، وأهداه ضريحاً من الرخام بدل الخشب وهو الباقي
إلى اليوم^(٢).

دامت ولاية ناظم باشا على دمشق حوالي اثنتي عشرة سنة^(٣)، وهي تعد من أطول
الأزمان التي تسلم فيها وال ولاية بر الشام فترة العهد الحميدي، فقد كان من النادر
أن يصمد وال أكثر من سنة على هذه الولاية، كانت ولايته غنية بالمنجزات
والعطاءات التي لم تشهدهما دمشق من قبله ولا بعده في تلك المرحلة.

ثالثاً: الإمتيازات الأجنبية والمعاهدات التجارية:

تعد مسألة التدخل الأجنبي في البلاد العربية مسألة قديمة، فلقد تعرضت هذه
البلاد منذ عصر الاكتشافات الجغرافية^(٤) إلى خطر السيطرة على سواحلها المطلّة
على المحيطات والمضايق الهامة في تلك المرحلة، ومن أهم هذه القوى البرتغاليون الذين
تصدى لهم كل من المماليك، ثم العثمانيين، ثم جاء بعد البرتغاليين الهولنديون
والفرنسيون والإنكليز، وفي هذه المرحلة كان يقع على عاتق الدولة العثمانية الدفاع

(١) صلاح الدين الأيوبي: (٥٣٢-٥٥٨٩-١٣٧-١٩٣م) يوسف بن أيوب بن شاذي: أبو المظفر صلاح الدين
الأيوبي الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، حرر بيت المقدس من الصليبيين، دفن في دمشق
بالقرب من الجامع الأموي. الزركلي، مرجع سابق، ج ٨، ص ٢٠.

(٢) أفلونوبوس، جورج، بقظة العرب، قدم له: نبيه أمين فارس، ترجمة: د. ناصر الدين الأسد، د. إحسان عباس،
دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) الحصني، محمد أديب، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) عصر الاكتشافات الجغرافية: بدأ في القرن السادس عشر حيث أحدث تغيراً عظيماً في تاريخ العالم، وأشهر
الرحالة البرتغاليون والإسبان حيث استطاع ماركو بولس أن ينفذ حول رأس الرجاء الصالح، ويصل إلى
الهند، وبذلك دخل عصر تجاري واقتصادي وسياسي جديد إلى العالم حيث قلب موازين القوى الدولية.

انظر: نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٨، ص ١٤٣-١٥١.

عن هذه المناطق وحمايتها من هجمات هذه الدول الاستعمارية الطامعة بها حيث أن البلاد العربية في تلك المرحلة كانت قد خضعت للحكم العثماني^(١)، وكذلك كان الحال بالنسبة للسواحل العربية على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت تتعرض لهجمات الجنوئين والبنادقة والفرنسيين والإنكليز^(٢).

واستمر هذا الأمر حتى حل محل هذه المناوشات العسكرية والمنافسات التجارية ما سمي بالامتيازات الأجنبية. والامتيازات الأجنبية: ما هي إلا تصاريح ومعاهدات منحت بموجبها الدول الأجنبية أحقية ممارسة مصالحها التجارية والاقتصادية في الدولة العثمانية بموجب معاهدة تتم بين الطرفين^(٣).

وعلى مدى القرون الثلاثة الماضية أخذت هذه المعاهدات صفة اتفاقيات تجارية ما بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، وبموجب هذه الاتفاقيات ونظام الامتيازات منح الرعايا الأجانب كثيراً من الفوائد وجعلهم دولة ضمن دولة يخضعون لقوانين بلادهم وليس للقوانين العثمانية أو المحلية^(٤).

وكانت أولى هذه الامتيازات في ٢٠ أيلول (١٨٣٥ هـ/ ١٨٣٥ م). حيث حصلت فرنسا على أولى امتيازاتها بموجب الخط الشريف السلطاني الذي صدر في العام نفسه، وفيه سمح السلطان للفرنسيين أن يتجولوا في مصر كما يشاؤون وفي حال وقوعهم

(١) بداية دخول العثمانيين للبلاد العربية: دخل العثمانيون بلاد الشام في ٢٤ آب ١٥١٦ وذلك إثر هزيمة المماليك على يد السلطان سليم الأول في معركة مرج دابق، ودخلوا مصر في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ بعد هزيمة المماليك في معركة الريدانية ومعه دخلت الحجاز تلقائياً باعتبارها تابعة لمصر، أما اليمن فلقد دخلها العثمانيون سنة ١٥١٨، وتم للعثمانيين هزيمة الصفويين في العراق والاستيلاء عليها سنة ١٥٣٤.

انظر: حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث والمعاصر من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، جامعة الإسكندرية، مؤسسة الشباب بالإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٣-٢٣.

(٢) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦)، ط٢، دمشق، ١٩٩٣، ص ٤١١-٤١٢.

(٣) الامتيازات الأجنبية هي اتفاقات خاصة في التجارة والأحوال الشخصية تكرم بها الباب العالي على بعض الدول الأوروبية بشأن رعاياها الفاطنين في الإمبراطورية العثمانية وأشهرها الامتيازات الفرنسية (١٥٣٥) والإنكليزية (١٥٧٩)، والمهلندية (١٦١٣) ثم الأسبانية والروسية. وقد ألغيت الامتيازات في أيلول ١٩١٤ م قبل دخول تركيا الحرب.

(٤) رافق، مرجع سابق، ص ٤١٤.

في خصومات فمن حقهم مراجعة قناصلهم إلا في حالة الدم، فذلك يرجع إلى قضاة الشرع الحكم فيه^(١). وتعد هذه الامتيازات هي أساس لكل المعاهدات والامتيازات التي تلتها وذلك حتى عام ١٩١٤م. وسنذكر فيما يلي بعض البنود التي وردت في المعاهدة الموقعة بين سرّ عسكر الدولة العلية والمسيو جان دي لافوري سفير فرنسا في شباط سنة (١٥٣٦):

البند الأول: يجوز لرعايا ملك فرنسا السفر بحراً في مراكب مسلحة أو غير مسلحة والسير برأً وبحراً من بلاد إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة بحيث يدفع الفرنسيون في البلاد العثمانية والإقامة فيها والرجوع بقصد الإبحار، ولهم الحرية التامة في ذلك لا يعتدي عليهم أحد ولا على متاجرهم وكذلك يجوز لرعايا السلطان الأعظم وتابعيه في بلاد ملك فرنسا.

البند الرابع: لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها العثمانيون على الرعايا الفرنسيين أو الحكم عليهم فيها ما لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم أو حجج رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو القنصل الفرنسي وحينئذ لا تسمع الدعوى أو شهادات مقدمها إلا إذا كان ترجمان القنصل حاضراً.

البند السادس: لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وهذا فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو غيره من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ولهم أن يتبعوا شعائر دينهم ولا يجبرون على الإسلام ولا يعدّون مسلمين ما لم يعترفوا بذلك مختارين غير مكرهين^(٢).

وكما أسلفنا فقد كانت هذه الامتيازات الباب العريض الذي دخل عبره الأوروبيون إلى الدولة العثمانية، ووصل بهم الأمر فيما بعد إلى التدخل في شؤونها وسياساتها، وفي الوقت نفسه بدأ التنافس الاستعماري الفرنسي والإنكليزي يتزايد

(١) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، حققه: حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص ١٥٤.

(٢) مختارات من القوانين العثمانية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، دار الحمراء للطباعة والنشر، ص ١٦٧-١٦٨.

ويتنامى في المنطقة حتى وصل ذروته في الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م والتي استمرت حتى ١٨٠١م^(١).

فبعد هذه الحملة تنامي الدور الكبير لإنكلترا في المنطقة، وخاصة أنها كانت قد عارضت وجود الحملة الفرنسية في مصر وبلاد الشام، فلهذا اضطر العثمانيون للإنكليز وقد جعلهم هذا الأمر يعتمدون عليهم في الوقوف ضد مطامع محمد علي باشا^(٢) في بلاد الشام.

وبالفعل قامت إنكلترا بالضغط على محمد علي للخروج من بلاد الشام وكان ذلك من خلال قرارات مؤتمر لندن الأول ١٨٤٠م ولندن الثاني ١٨٤١م^(٣).

وعلى الرغم من انسحاب محمد علي من بلاد الشام غير أن التدخل الأوروبي في المنطقة ازداد حدة وخاصة من قبل فرنسا وإنكلترا، ولقد برز هذا التدخل جلياً من خلال النزاعات الطائفية التي نشبت في المنطقة، حيث كانت هذه النزاعات هي الباب الأوسع الذي نفذت منه الدول الاستعمارية في داخل الجسد العثماني، حيث اتخذت كل دولة أوروبية حليفاً لها من هذه الطوائف المتنازعة في المنطقة، وساعدت

(١) الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) ففي ٢ نيسان ١٧٩٨م أصدرت حكومة الإدارة الفرنسية قراراً بتشكيل جيش الشرق تحت قيادة نابليون بونابرت لغزو مصر والهدف ضمان مصالح فرنسا في المنطقة ولهدد المصالح الإنكليزية وأشهر مواقعها أبي قير. الحملة على بلاد الشام انتهت بهزيمة القوات الفرنسية أمام الضغوطات الإنكليزية والعثمانية والشعب المصري، وانسحبت في أيلول ١٨٠١م. حلمي محروس، تاريخ العرب الحديث، مرجع سابق، ص ٩٩-١١٧.

(٢) محمد علي باشا (١١٨٤-١٢٦٥هـ-١٧٧٠-١٨٤٩م): محمد علي بن إبراهيم آغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير مؤسس آخر دولة ملكية في مصر، ألباني الأصل مستعرب ولد في قولة في اليونان، جاء مصر مع قوة من المتطوعين لرد الغزاة الفرنسيين عن مصر، أصبح والياً على مصر سنة (١٢٢٠هـ-١٨٠٥م) خاض العديد من الحروب لتوسيع إمارته، توفي ١٨٤٩م ودفن في القاهرة. الزركلي، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) مؤتمر لندن الأول + مؤتمر لندن الثاني: الأول عقد في ١٥ تموز ١٨٤٠ بدعوة من إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا لحل القضية المصرية مع الدولة العثمانية وفيه منح محمد علي حكم مصر وراثياً، وانسحب من بلاد الشام). ولندن الثاني عقد في ١٣ تموز ١٨٤١م بين الباب العالي والنمسا وفرنسا وإنكلترا وروسيا وبروسيا، ودعت بمعاملة المضائق حيث منحت السفن الأوروبية حرية التنقل في مياه البوسفور في أيام السلم). البرجاولي، أحمد، الإمبراطورية العثمانية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٩٨-٢٢٩.

على تأجيج نار الفتنة في المنطقة بشكل أكبر، فمثلاً أيد الإنكليز طائفة الموحدين الدروز^(١) وأيد الفرنسيون الموارنة^(٢) وأيد الروس المسيحيين الأرثوذكس^(٣) وبالمقابل استغل العثمانيون ظروف المنازعات هذه من أجل إعادة سيطرتهم على المنطقة من جديد فحدثت الكثير من الفتن في تلك المرحلة، أشهرها مذبحة الستين (١٨٦٠م) في دمشق وحلب^(٤)، واستمر التدخل الفرنسي والإنكليزي في المنطقة آخذاً عدة أدوار ومراحل حتى وصل إلى شكله الأخير وهو الانتداب وذلك بفرض الانتدابين الفرنسي والإنكليزي^(٥) في المنطقة في أعقاب الحرب العالمية الأولى^(٦).

هذا بالنسبة لفرنسا وإنكلترا أما ألمانيا فلقد جاء دورها في الحصول على الامتيازات في الدولة العثمانية متأخراً عن مثيلاتها إنكلترا وفرنسا، حيث بدأت بعد الزيارة الأولى التي قام بها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني وزوجته إلى السلطان عبد الحميد الثاني وكانت في ١ تشرين الأول ١٨٨٩م، ثم جاءت الزيارة الثانية ١٨٩٨م،

(١) الموحدون الدروز: وهم فرع عن النسبة الإسماعيلية، ظهر في أواخر القرن العاشر الميلادي في عهد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر (٣٤٥-٤١١هـ-٩٥٦-١٠٢٠م) ومن أتباعه الدرزي والذي نسب أتباعه إليه، ويفضلون أن يطلق عليهم اسم الموحدون، يتركزون في سوريا ولبنان. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص ٨٠-٨١.

(٢) الموارنة: وهم المسيحيون الذين يتبعون اللاهوت والطقوس اللاتينية للكنيسة الكاثوليكية الغربية في روما وهم جزء لا يتجزأ منها ولهم بطريرك في القدس يعينه البابا من روما وثلاثة مبعوثين رسوليين في القاهرة بيروت وبغداد ويتركزون في سوريا وفلسطين. إبراهيم، سعد الدين، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣) المسيحيون الأرثوذكس هم أتباع الكنيسة الشرقية التي تستخدم اللاهوت والطقوس البيزنطية يتركزون في أربعة بطريركيات هي القدس أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية. إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) فتنه الستين: فتنه حدثت في بلاد الشام ما بين الدروز الموارنة في لبنان بتحريض من فرنسا التي دعمت الموارنة وإنكلترا التي دعمت الدروز، حصدت الكثير من الأرواح في المنطقة وذلك سنة (١٢٧٧هـ-١٨٦٠م). يحيى، التاريخ العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٢٩٥-٢٠٦-٢٠٧.

(٥) الانتداب الفرنسي والإنكليزي في المنطقة: نظام سياسي مؤقت استحدث بعد الحرب العالمية الأولى ونص عليه ميثاق عصبة الأمم عام ١٩١٩ وموجبه وضعت سوريا تحت الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ والعراق تحت الانتداب الإنكليزي ١٩٢٠ بالإضافة لفلسطين. أحمد، عطية الله، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٦) رافق، مرجع سابق، ص ٤١٥-٤٢٧.

ولم يكن هدف هذه الزيارة الثانية هو فقط حماية البروتستانت^(١) في الأراضي المقدسة في القدس ولا مجاملة السلطان عبد الحميد الثاني ولكن كانت الزيارة متزامنة مع منح امتياز مرفأ حيدر باشا إلى شركة الخطوط الأنضولية، وكان قد وقع أيضاً مع البنك الألماني عقداً بمد السكة الحديدية حتى أنقرة^(٢)، وتم ذلك في سنة ١٨٩٢م، ومنح الألمان أيضاً امتياز مد سكة حديد استانبول بغداد ١٩٠٢م، وقد أسفر عن هذا الامتياز نشوب صراع دولي في المنطقة.

ثم جاء الخط الحديدي الحجازي الذي وصل بين دمشق والمدينة المنورة وأنجز بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٨ بمساعدة الألمان، ولقد كان لهذا المشروع دور في خدمة السياسة الإسلامية التي انتهجها السلطان عبد الحميد الثاني في أواخر حكمه، فضلاً عن خدمة المصالح الاستراتيجية الألمانية في المنطقة، كما كان من شأنه أن يهدد المواصلات الإمبراطورية البريطانية على البحر الأحمر، ولذلك عارضته إنكلترا بشدة^(٣).

ومن أشهر امتيازات الخطوط الحديدية بين عامي (١٨٧٦-١٩٠٩م):

♦ سنة ١٨٨٨م يافا^(٤) القدس^(٥).

(١) البروتستانت: البروتستانية كعقيدة وممارسات دينية تمثل أحد الانشقاقات الكبرى في تاريخ المسيحية. والبروتستانت تعني الاحتجاج وعدددهم في البلاد العربية حوالي ٢٠٠ ألف معظمهم في لبنان وسوريا. إبراهيم، سعد الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أنقرة: وهي عاصمة تركيا الحالية، وتقع بالأناضول الوسطى. بعد هزيمة بابزید الأول على يد تیمورلنک تدهورت أوضاعها حتى عام ١٩٢٣م حيث أصبحت عاصمة تركيا بدلاً من القسطنطينية. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، جزآن، ج ١، دار البعث، ١٩٦٥، ص ٢٤٨.

(٣) رافق، مرجع سابق ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٤) يافا: مدينة تقع غرب فلسطين على البحر المتوسط، دخلها نابليون ١٧٩٩م، والبريطانيون في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٧)، غالبية سكانها من العرب حتى عام ١٩٤٨ عندما احتلها اليهود، غربال، مرجع سابق، القسم الثاني، ص ١٩٧٧.

(٥) القدس: سماها اليهود أورشليم، وهي عاصمة فلسطين، سلمت للخليفة عمر بن الخطاب سنة (١٧/٦٣٨م)، ودعاها العرب القدس، احتلها الصليبيون سنة (١٠٩٩/٥٤٩٣م)، استرجعها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين سنة (١١٨٧/٥٥٨٣م)، بقيت بيد العثمانيين من ١٥١٦م إلى ١٩١٧. المتجدد في الأعلام، ص ٥٤٦.

- ◆ سنة ١٨٩٠م الشام - المزيريب^(١).
- ◆ سنة ١٨٩١م بيروت^(٢) - دمشق.
- ◆ سنة ١٨٩٣م، الشام حلب^(٣) - براجيك^(٤).
- ◆ سنة ١٨٩٨م الترام اللبناني: بيروت - جونيه^(٥).
- ◆ سنة ١٩٠٢م قونية^(٦) - بغداد^(٧).
- ◆ سنة ١٩٠٢م إلى ١٩٠٤م رفاق^(٨) - حلب.
- ◆ سنة ١٩١١م طرابلس^(٩) - حمص^(١٠).

-
- (١) المزيريب: قرية سورية تقع على طريق الحج بين دمشق ومكة، فيها عين ماء غزيرة وشلالات. المنجد في الأعلام، ص ٦٥٧.
- (٢) بيروت: عاصمة لبنان حالياً وميناء هام شرق البحر المتوسط، تقع في سفح سلسلة جبال لبنان، فتحها العرب في خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٥م)، احتلها الفرنسيون (١٩١٨-١٩٤٤). غريال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٦٣.
- (٣) حلب: مدينة تقع شمال غرب سورية ورد اسمها في وثائق ترجع للألف الثانية ق.م استولى عليها العرب في القرن السابع والسلاخفة الأتراك في القرن (١١)، وحاصرها الصليبيون (١١٢٤م)، حررها صلاح الدين (١١٨٣م)، واحتلها العثمانيون (١٥١٦م إلى ١٩٢٠م) يطلق عليها اسم الشهباء. غريال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج ١، ص ٧٣٢.
- (٤) براجيك: قرية تقع على الحدود السورية التركية.
- (٥) جونيه: مدينة في لبنان شمالي بيروت، مركز قضاء كسروان، كانت مرفأ لبنان في عهد المنصرفة، مرفأ سياحي، ومرفأ حربي. المنجد في الأعلام، ط ١٢، ص ٢٢٢.
- (٦) قونية: مدينة في وسط تركيا الآسبوية عاصمة سلطنة الروم السلجوقية (١٠٨١-١٣٠٢م)، هُزم فيها الجيش العثماني أمام إبراهيم باشا (١٨٢٢م). المنجد في الأعلام، ص ٥٥٩.
- (٧) بغداد: عاصمة الجمهورية العراقية حالياً، وقاعدة ومركز قضاء بغداد شيدتها المنصور الخليفة العباسي (٧٦٢م) ودعاها مدينة السلام دمرها هولاءكو (١٢٥٨/٥٦٥٦م) وتيمورلنك (١٤٠٠م)، ثم احتلها الأتراك (١٥٣٤م). المنجد في الأعلام، ص ١٣٧.
- (٨) رفاق: بلدة في لبنان (قضاء بعلبك) مطار عسكري محطة السكة الحديدية. المنجد في الأعلام، ص ٣١٥.
- (٩) طرابلس: مدينة شمال لبنان قاعدة ومركز قضاء طرابلس ثانية المدن اللبنانية تجارياً، فتحها العرب (٦٣٨م)، احتلها الصليبيون (١١٠٩م)، استرجعها السلطان قلاوون (١٢٨٩م)، بقيت بيد العثمانيين حتى (١٩١٨م). المنجد في الأعلام، ص ٤٣٥.
- (١٠) حمص: مدينة سورية قديمة جداً دخلها العرب (٦٣٦م)، نوالى على حكمها الحمدانيون والفاطميون ثم الأتراك. المنجد في الأعلام، ص ٢٥٩-٢٦٠.

♦ سنة ١٦١٢م حلب - الصلاحية^(١).

وكانت هذه الامتيازات تمنح لشركات فرنسية ما عدا خط قونية بغداد ، فقد اختصت به شركة ألمانية ولكن لم يتم لها إمكانية إنجازه^(٢).

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م):

عملت روسيا بين الحين والآخر على إثارة الفتن والمشكلات في داخل حدود الأراضي العثمانية وخاصة في مناطق بلاد الصرب والبلغار والأرناؤوط^(٣) وذلك بإطلاقها شعار توحيد الشعوب السلافية في جميع أنحاء أوربة تحت القيادة الروسية، ولم تكن هذه الدعوة إلا وسيلة تبرر غاية روسيا في الوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى الهند وذلك بعد القضاء على الدولة العثمانية.

ومع تكشف النوايا الروسية هذه أدى الأمر إلى حصول منافسة بينها وبين سائر الدول ذات العلاقة بهذه البلاد والتي ستتهدد مصالحها في المنطقة في حال وصول روسيا إلى هذه الأماكن (وخاصة إنكلترا وفرنسا)^(٤).

(١) الصلاحية: منطقة تقع بالقرب من القدس، بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال، تحقيق: زهير الشاويش، ج ١، المكتب الإسلامي، بيروت "٢، ١٩٨٥، ص ١١.

(٢) بينهم، محمد جميل، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب والترك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط ١، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م، مصر، ص ١٢٦.

(٣) بلاد الصرب والبلغار والأرناؤوط: وهي إحدى ممالك البلقان وقد كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ثم فيما بعد أصبحت تابعة ليوغسلافيا أشهر مدنها سراجيفو - البلقار: وهي أيضاً إحدى ممالك البلقان تقع بين الصرب واليونان ورومانيا وتركيا، أهم مدنها صوفيا والبلغان منطقة جبلية في جنوب أوروبا، تحدها من الشمال جبال البلقان، ومن الشرق البحر الأسود. وأهم دولها: رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وتركيا الأوروبية. خضعت هذه الأماكن للسيطرة التركية ثم الروسية والنمساوية في القرن (١٨). المنجد في الأعلام، ص ١٤١ ص ٧٥٦.

(٤) أ.ح. جرانت وهارولد تيمبلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، (٦ أجزاء)، ترجمة: أحمد علي أبو درة، لويس إسكندر، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧، من ص ٣ إلى ١٨. العظيمة، مرآة الشام، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الدعوة السلافية قد بلغت أوجها، وبسبب تعاظم دور هذه الدعوة في المنطقة وتعاظم دور الجمعيات التي شكلها الروس لنشر نفوذهم بين الطوائف الصقلية^(١) في إثارة أهالي البوسنة والهرسك^(٢)، ولقد كان لهذه الجمعيات فروع في بلاد البلغار. ونتيجة لتحريض هذه الجمعيات ثار البلغاريون ضد الدولة العثمانية التي منحتهم جميع ما طلبوا من حقوق، ورغم ذلك فقد قامت حركات العصيان في المنطقة وانتهت إلى حدوث فتنة بين المسيحيين والمسلمين في المنطقة، وكان ذلك طبعاً بتحريض من الروس، كما أدت إلى حدوث مذابح، حيث دمرت العديد من القرى، ولكن رغم ذلك استطاعت الدولة العثمانية أن تخمد هذه الفتنة وتسكتها^(٣).

أ- مشكلة الصرب والجبل الأسود:

لم تياأس روسيا من الوضع بل تابعت تحريضها للفتنات السلافية في المنطقة من أجل الثورة والانتفاضة ضد العثمانيين، وهكذا أوعزت إلى أميري الصرب والجبل الأسود^(٤) بإعلان الحرب على الدولة العثمانية فاجتازت الجيوش العثمانية نهر (مورافيا)^(٥)، وحدثت مناوشات بين الطرفين، وبعد معركة حامية كانت الغلبة

(١) الطوائف الصقلية: وهي مجموعة تمثل الشعوب السلافية: وهي شعوب تسكن بين جبال الأورال والبحر الأدرياتيكي في أوروبا الشرقية. وهم صفالية الغرب: ويشملون البولنديين والنشيك والسلوفاكيين وصفالية الشرق وهم الروس والأوكرانيين والروس البيض والصفالية الجنوبيين وبضمون الصربيين والكروات والسلوفاك والمقدونيون والبلغار، وكانت الدعوة السلافية من أقوى ما اعتمدت عليها روسيا في توسعها. غربال، مرجع سابق، القسم الثاني، ص ١١٢٦.

(٢) البوسنة والهرسك أو البشناق من جمهوريات يوغسلافيا سابقاً، عاصمتها ساراجيفو، سكانها من الصرب ظلوا تحت الحكم التركي حتى معاهدة برلين (١٨٧٨م) ثم خضعوا فيما بعد إلى حكم النمسا. المنجد في الإعلام، ص ١٥٠.

(٣) حسون، علي، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط ٢، (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٢٣٠-٢٣١، وانظر أيضاً أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٤) الجبل الأسود: إمارة تقع بين البحر الأدرياتي وألبانيا - أهلها صرب يعتقد معظمهم المذهب الأرثوذكسي - كان مكوناً من (١٤) إمارة. غربال، مرجع سابق، ص ٦١٢.

(٥) مورافيا (نهر): نهر طوله ٢١٥٠ في يوغسلافيا يتكون من النقاء نهر موارفا الغربية ومورافيا الجنوبي وينحدر جنوباً حتى يلتقي بنهر الدانوب. غربال، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٧٧٤.

للجيش العثماني الذي طارد القوات الصربية حتى (بلغراد)^(١)، حيث تدخلت الدول العظمى وتوقف الزحف العثماني إلا أن الباب العالي رفض مطالب هذه الدول وأوعز باستمرار القتال فتراجع الصربيون حتى بلغراد مرة ثانية^(٢).

وبالنسبة للظروف التي سبقت هذه المعركة فقد كان الجبل الأسود على أتم الاستعداد للقتال والثورة ضد العثمانيين ولكن الصرب لم تكن عندهم تلك الجاهزية العسكرية والنفسية، وبالتالي تم اشتباك الطرفين مع الدولة العثمانية حيث بدأت المناوشات مع الصرب في ٣٠ حزيران ١٨٧٦م، ومع الجبل الأسود بدأت المعارك في أول تموز من نفس العام. استطاع الجبل الأسود في البداية أن يحرز نجاحاً كبيراً، ولكن مع الهزيمة التي لحقت بالصرب كما أسلفنا الذكر زحفت القوات العثمانية نحو بلغراد ولم يوقف هذا الزحف إلا إنذار نهائي وجهته روسيا للدولة العثمانية طلبت فيه إيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لفترة معينة^(٣). وهنا يوجد سؤال يطرح نفسه: لماذا لم تقف روسيا في هذه الحرب إلى جانب الصرب والجبل الأسود وهي التي كانت زعيمة ما سمي بالدعوة السلافية؟ والجواب كامن في الموقف الإنكليزي من الأوضاع، فبما أن إنكلترا كانت قد استشعرت نوايا روسيا من وراء أعمالها ودعوتها إلى الوحدة السلافية وهو الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط والهند، فقد أبلغت بريطانيا روسيا أنه مهما يكن من أمر الشعور بالغيرة تجاه الصرب والجبل الأسود من قبل الروس والاستياء من الأفعال الشنيعة للأتراك في المنطقة فإن على بريطانيا أن تحمي مصالحها في قناة السويس وفي القسطنطينية،

(١) بلغراد: عاصمة يوغوسلافيا سابقاً تقع شمال شرقي البلاد على ملتقى نهرَي الدانوب والساف وهي عاصمة صربيا حالياً. استولى عليها الأتراك ١٥٢١م، ثم دخلتها النمسا (١٦٨٨م-١٧١٧م-١٧٨٩م)، انسحبت الحامية التركية منها (١٨٦٧م). غربال، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٩.

(٢) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣) حرانت ونميرلي، مرجع سابق ص ١٦٦.

وفعلاً أعلن القيصر الروسي الإسكندر الثاني^(١) أنه ليس لديه أي خطة للاستيلاء على بلغاريا أو القسطنطينية^(٢).

ومنعاً للعراقيل السياسية في المنطقة قبلت الدولة العثمانية بإعطاء هدنة للصرب والجبل الأسود لمدة معينة، وطالبت إنكلترا بعقد مؤتمر دولي لحل هذه القضية، وافقت عليه جميع الدول بما فيها روسيا، ووصل المندوبون إلى الآستانة وعقدوا اجتماعات عدة في سفارة روسيا. افتتح المؤتمر رسمياً عام (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) في سراي البحرية تحت رئاسة ناظر الخارجية العثماني صفوت باشا وحضر مندوبو فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وروسيا وإنكلترا^(٣)، ولقد كان السلطان عبد الحميد الثاني قد تسلم زمام أمور السلطنة في نهاية شهر آب من ذلك العام، ورغم صغر سنه استطاع أن يبرهن عن ذكاء حاد ومكر شديد في سياسته التي ستستمر على مدى الثلاث والثلاثين سنة القادمة من حكمه، ففي اليوم السابق لانعقاد المؤتمر الدولي السالف الذكر الذي دعت إليه إنكلترا في الآستانة منح السلطان عبد الحميد الثاني البلاد دستوراً لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية وذلك بعد تعرضه للضغط الشديد من قبل الإصلاحيين في الدولة من أمثال (مدحت باشا) أبو الدستور (ورد سابقاً) من طرف والدول الأوروبية العظمى التي أسلفنا أنها تنادت من أجل عقد مؤتمر دولي لبحث قضية إحداث إصلاحات في داخل الدولة العثمانية من أجل حماية الأقليات الدينية فيها من طرف آخر، وهكذا أعلن الدستور في اليوم نفسه أي في (٢٣ كانون الأول سنة ١٨٧٦م) الذي اجتمع فيه ممثلو الدول الأوروبية لاقتراح إدخال الإصلاحات الضرورية على الإدارة العثمانية وعين مدحت باشا صديراً أعظم للدولة، وهكذا استطاع أن يظهر السلطان عبد الحميد الثاني لشعبه وللدول الأوروبية رغبته المخلصة في تحقيق

(١) القيصر الروسي: إسكندر الثاني ولد سنة ١٨١٨م، حكم (١٨٥٥م-١٨٨١م)، تبنى الحركة الإصلاحية في بلاده وعمل على تحرير الأفغان قضى بقسوة على ثورة البولونيين سنة (١٨٦٣م). المنجد في الأعلام، ص ٤٣.

(٢) أ.ج. حرانت وهارولد تمبلي، مرجع نفسه، ص ١٦.

(٣) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣٠-٢٣١.

الإصلاح وعدم معارضته منح الحريات في البلاد وبذلك فقدت الدول الأوروبية حججها لتدخل في شؤون الدولة العثمانية^(١).

وهكذا أعلن القانون الأساسي في المؤتمر الذي يضمن الحرية والمساواة لا لبساقالة وحدهم بل لجميع التبعية العثمانية على اختلاف مذاهبهم^(٢)، وانفض المؤتمر وسافرت الوفود من دون أن تتوصل إلى قرارات حاسمة، وبدت الأجواء، وكأنها تنذر بحدوث حرب بين العثمانيين والروس، وسعت الدولة العثمانية إلى إبرام صلح مع إمارة الصرب بشروط. وهنا خشيت روسيا من أن توقع إمارة الجبل الأسود على معاهدة أو صلح مماثل مع الدولة العثمانية فسارعت إلى تقديم لائحة عرفت بلائحة لندن^(٣) وقع عليها سفراء الدول الأوروبية العظمى، وتضمنت هذه اللائحة منح السكان المسيحيين في كل من البوسنة والهرسك والبلغار امتيازات يختلفون فيها عن بقية السكان، وطبعاً رفض السلطان عبد الحميد الثاني هذه اللائحة فسارعت روسيا إلى توقيع معاهدة سرية مع إمارة رومانيا الأفلاق والبلغدان^(٤) سنة ١٨٧٨م وضعت رومانيا بموجبها جميع أسلحتها ومؤنها تحت تصرف الروس ثم أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية وقطعوا العلاقات معها^(٥).

(١) يحيى، مرجع سابق، ص ٢١٣-٢١٥.

(٢) العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

(٣) لائحة لندن وهي المعاهدة التي وقعت في آذار ١٨٧٧م من قبل الدول الأوروبية العظمى وعرفت باسم بروتوكول لندن. جاء فيها ما يلي: إن الدول الغربية مع ارباحها للسلام الذي تم الاتفاق عليه بين تركيا وصربيا تعلن أنها ستراقب باهتمام الطريقة التي بموجبها ستضع الحكومة العثمانية موضع التنفيذ الإصلاحات التي وعدت بها، وهي تحتفظ لنفسها بالحق في اتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيق السلام العام في الشرق إذا ما رأت أن أحوال الشعوب المسيحية لم تتحسن. البرحاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٤) إمارة رومانية (الأفلاق والبلغدان): والأفلاق اسم أطلقه الأتراك على إمارة فلاحيا الواقعة في مناطق نهر الدانوب استقلت عن تركيا (١٨٠٦م) فكانت مع مولدانيا دولة رومانية (١٨٥٨م). المنجد في الإعلام، ص ٥٦.

أما البغدان فهي نسبة إلى بغدان الأول دركش (١٣٥٢م) وهو الاسم الذي يطلقه الأتراك على مولدانيا، واستقلت الأفلاق والبلغدان بموجب معاهدة أدنة (١٨٢٩م). دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص ٢٣٧.

(٥) حرائر ونمري، مرجع سابق، ص ١٨، العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨، وانظر: حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١.

ب- إعلان الحرب وأهم مجرباتها:

هكذا بعد التطورات السابقة الذكر وجد العثمانيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الروس وشركائهم، ولقد وقفت الدول الأوروبية من هذه الحرب موقف المتفرج على الأحداث، حتى أن إنكلترا التي كان يعتقد العثمانيون أنها حليفهم وقفت موقفاً سلبياً من الحرب وانتظرت مع غيرها النتائج التي ستسفر عنها هذه الحرب^(١).

وتعد هذه الحرب من أكبر المصاعب التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني مع بداية تسلمه للحكم وجاءت وبالأعلى الدولة العثمانية، فروسيا في القرن الأخير نمت نمواً كبيراً، حيث زاد عدد سكانها أربعة أضعاف عن سكان الدولة العثمانية، كما وقد تحالفت مع روسيا كل المناطق والشعوب السلافية كما أسلفنا بسبب الدعوة سابقة الذكر.

ولقد هيا الروس أنفسهم بشكل جيد لخوض غمار هذه الحرب وكأنهم أرادوا حصولها ولكن العثمانيين كانوا على النقيض منهم، فهم لم يكونوا راغبين في القتال ذلك بسبب عدم جاهزيتهم لها^(٢).

أهم أحداثها:

قبل إعلان الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية قامت القوات الروسية بعبور الحدود الرومانية باتجاه الدولة العثمانية وعبرت نهر الدانوب^(٣) الفاصل بينهما، حيث كانت إمارة رومانيا قد تعاهدت مع روسيا سراً بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٧٧م، وبموجب هذا العهد تم وضع الأراضي الرومانية كافة تحت تصرف الروس من أجل المرور عبرها وقطع نهر الدانوب باتجاه الممتلكات العثمانية، ورداً على تقدم الروس عبر نهر الدانوب أمر الباب العالي بإرسال بعض السفن الحربية إلى هذا النهر لمعاينة الدولة

(١) أ.ج.جرانت وهارولد كمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص ١٨، حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٢) أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠١، المرجع السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) نهر الدانوب: أو طونة نهر في أوروبا يبلغ طوله (٢٨٦٠ كم) يقع في الغابة السوداء (ألمانيا الغربية) ويخترق ألمانيا، النمسا، يوغسلافيا، رومانيا، وبلغاريا ليصب في البحر الأسود صالح للملاحة. المنجد في الأعلام، ص ٢٨١.

الرومانية وهذا الأمر دفع برومانيا إلى إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية في ١٤ أيار ١٨٧٧ م والدخول في الحرب ضدها إلى جانب روسيا^(١).

في هذه الأثناء كانت القوات الروسية تتقدم في بلغاريا^(٢) فاحتلت مدينة ترنوة^(٣) و(نيكوبلي)^(٤) ومضائق البلقان ولم يبق بينها وبين الآستانة سوى خطوات^(٥).

وقد كادت الحرب أن تنتهي بفشل ذريع للعثمانيين لو لا تبديل قام به الجيش العثماني في قيادته فتزعم القيادة عثمان باشا^(٦) الذي كان يلقب بـ (قاهر الصرب) حيث تمكن هذا القائد العثماني بعبقريته العسكرية من وقف تقدم القوات الروسية في بلقنا^(٧) وتحصن في قلعتها وهناك استطاع من خلف المتاريس أن يصد كل الهجمات الروسية وجمد القوات الزاحفة نحوه قرابة خمسة أشهر^(٨).

(١) البرجواي، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٢) بلغاريا: تقع بين يوغسلافيا واليونان ورومانيا وتركيا في منطقة البلقان عاصمتها صوفيا احتلها الأتراك (١٣٩٦م) وحصلت على استقلالها عن طريق روسيا في معاهدة سان استيفانو (١٨٧٨م) جُزئت في مؤتمر برلين إلى إمارة مستقلة في الشمال وولاية الروملي في الجنوب، وعليها حاكم مسيحي بعينه السلطان العثماني توحدت في دولة مستقلة (١٩٠٨م). المتجدد في الأعلام، ص ١٤١.

(٣) ترنوة: مدينة بلغارية.

(٤) نيكوبلي: مدينة بلغارية على الدانوب أسسها هرقل (٥٧٥-٦٤٢م)، عندها انتصر بايزيد على جيش المجر وفرنسا (١٣٩٦م) احتلها الروس (١٨١٠-١٨٧٧م). المتجدد في الأعلام، ص ٧٢١.

(٥) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١-٢٣٢. البرجواي، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٦) عثمان باشا قاهر الصرب: وهو عثمان نوري باشا (١٨٣٧-١٩٠٠م) قائد تركي حارب في القرم ولبنان وكريت وبلاد العرب ورحل إلى رتبة مشير لانتصاراته في بلاد الصرب (١٨٧٦م) دافع ببسالة عن بلقنا في بلغاريا في الحرب الروسية التركية (١٨٧٧-١٨٧٨م) ضد هجمات الروس المتكررة التي أجبرته على الاستسلام في النهاية. غربال، مرجع سابق، ج ٢، ص ١١٨٨.

(٧) بلقنا: قرية بلغارية على الشاطئ الأيمن من نهر فيد اشتهرت في التاريخ بنحصر القائد العثماني عثمان باشا بها في الحروب التي نشبت فيها بين الروس والدولة العثمانية سنة (١٨٧٦م). وجددي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ١٠ أجزاء، المجلد الثاني، ص ٣٤٣.

(٨) حرائر والمحملي، مرجع سابق، ص ١٨.

وقد حاول الروس مراراً وتكراراً الهجوم على حصون هذه القلعة، ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل، فقد فقدوا في مرة واحدة فقط خمسة عشر ألف عسكري، ولكن مع نفاذ ذخيرة عثمان باشا ووصول الإمدادات العسكرية والمادية من الإمارة الرومانية، حيث أن القيصر الروسي إسكندر الثاني ذهب بنفسه إلى رومانية واستصرخ شعبها واستتجد بهم باسم النصرانية فأمدته الرومانيون بسبعين ألف جندي.

وبذلك أطبق الروس على القوات العثمانية في بلفنا، وازداد الوضع تأزماً مع إصابة القائد العثماني عثمان باشا بجروح بليغة في أرض المعركة مما دفعه إلى طلب الاستسلام، وفعلاً تم الأمر وزحفت القوات الروسية على الآستانة واحتلت أدرنة ووصلت حتى سان استيفانو^(١) (*) .

قُدِّر عدد الجيش العثماني في هذه المعركة بحوالي (٥٠) ألف جندي عثماني مقابل (١٥٠) ألف روسي و(٧٧) مدفع عثماني مقابل (٦٠٠) مدفع روسي^(٢) .

لقد قام العثمانيون بإعداد العدة من أجل التصدي للزحف الروسي على الآستانة رغم إدراكهم لضخامة عدد وعتاد الجيش الروسي^(٣) .

استغل الإنكليز ظروف الهزيمة العثمانية وقام الأسطول الإنكليزي باجتياز مضيق الدردنيل ووصلوا إلى مياه الآستانة بحجة حماية الرعايا الإنكليز في الآستانة، واستطاعوا التوصل إلى عقد معاهدة مع الباب العالي تقضي بصد غارات الروس عن

(١) أوسلان، مرجع سابق، ص ٣٠١-٣١٢.

(★) سان استيفانو: وهي قرية تقع بالقرب من استانبول وتسمى حالياً بيزيكوي وفيها وقعت معاهدة سان

استيفانو (١٨٧٨م) التي ألغيت بموجبها الحرب الروسية التركية. غربال، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٥٠.

(٢) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٣) البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٩-٢٦٠.

البلاد العثمانية. ولكن النتيجة كانت هي احتلال جزيرة قبرص^(١) من قبل الإنكليز وضمها بشكل دائم إلى التاج البريطاني^(٢).

ومع ازدياد الأوضاع سوءاً على جبهات القتال من حصول هزائم متلاحقة للعثمانيين واشتداد البرد القارس والثلوج الكثيفة في تلك الفترة من العام، طلب الباب العالي من الدول الأوروبية العظمى التوسط من أجل وقف القتال، ولكن الروس استمروا في تقدمهم فوجهوا جنودهم إلى ما وراء جبل البلقان للإغارة على بلاد البلغار^(٣) والروملي الشرقية^(٤) ودخلوا صوفيا^(٥) في ٤ كانون الثاني ١٨٧٨م ثم فلبية^(٦) فأدرنة^(٧) في ٢٠ كانون الثاني وتقدموا بسهولة باتجاه الأستانة حتى لم يبق بينهم وبينها إلا (٥٠) كم فقط، واحتل أهالي الجبل الأسود الصرب في الوقت نفسه بعض المدن والمواقع وبذلك أصبح وضع الدولة العثمانية حرجاً جدياً فسارع السلطان عبد الحميد الثاني إلى طلب المساعدة من بريطانيا من أجل وقف القتال ولكن القيصر الروسي إسكندر الثاني رفض تدخل أي دولة خارجية بين الدول المتحاربة

(١) جزيرة قبرص: جزيرة في شرقي البحر المتوسط ما بين تركيا وسوريا عاصمتها نيقوسيا حالياً احتلها الإنكليز (١٨٧٨م) واستقلت (١٩٥٩م)، نزحت إليها جاليات من الموارنة منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر. المنجد في الأعلام، ص ٥٤٤.

(٢) العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

(٣) بلاد البلغار: هي نفسها بلغاريا وذكر تعريفها.

(٤) الروملي الشرقية: أو بلاد الروم: اسم أطلقه الأتراك على الإقليم الشامل تراقيا ومقدونيا بين البلقان والبحر الأسود وبحري مرمرية وإيجيه وسلسلة جبال البلقان وكانت تؤلف ولاية واحدة عدد سناحقها ٢٤ سنة ١٨٣٠. المنجد في الأعلام، ص ٣١٤-٣١٥.

(٥) صوفيا: عاصمة بلغاريا، تقع غربي البلاد كانت عاصمة داقيا الرومانية. المنجد في الأعلام، ص ٤٢٨.

(٦) فلبية: مدينة في مقدونية وجّه القديس بولس رسالة إلى أهلها. المنجد في الأعلام، ص ٥٣٨.

(٧) أدرنة: مدينة في الجزء الأوربي من تركيا، من مدن الإمبراطورية البيزنطية فتحها الأتراك (١٣٦١م) فأصبحت مقراً لسلابنتهم حتى فتح القسطنطينية (١٤٥٣م). المنجد في الأعلام، ص ٢٦.

وذلك من خلال الجواب الذي رد به على طلب الملكة الإنكليزية فيكتوريا^(١) المتعلق بوقف القتال^(٢).

وهكذا بعد ازدياد الأوضاع سوءاً وجد السلطان عبد الحميد الثاني نفسه مضطراً إلى قبول شروط روسيا، فأرسل مندوبين من قبله إلى الخطوط الروسية دون أن يعلم بذلك أحد من الدبلوماسيين الأجانب، وذلك عملاً بالشروط الأول الذي وضعه القيصر الروسي بإجراء المفاوضات بسرية تامة. حرص القيصر الروسي على السرية من أجل الحصول على عدد أكبر من المكاسب من الدولة العثمانية من دون تدخل الدول الأجنبية وخاصة إنكلترا، وكان له ما أراد من خلال توقيع معاهدة سان استفانو الجائرة مع العثمانيين.

معاهدة سان استفانو / ٣ آذار / ١٨٧٨ م /:

قضت هذه المعاهدة بما يلي:

- ١- استقلال إمارة الجبل الأسود وتوسيعها بضم بعض الأراضي لها من البوسنة والهرسك وميناء أنتيفاري^(٣) على ساحل بحر الأدرياتيك.
- ٢- استقلال بلاد الصرب وضم مقاطعتي نيس^(٤) ومتروفتزا^(٥) إليها.
- ٣- تطبيق الإصلاحات التي اقترحها مؤتمر الآستانة على الباب العالي من البوسنة والهرسك تحت إشراف روسيا والنمسا معاً.

(١) الملكة فيكتوريا: (١٨١٩م-١٩٠١م) ملكة إنكلترا ١٨٣٨م عملت على إحداث تفارب بين إنكلترا وفرنسا، نودي بها إمبراطورة على الهند ١٨٧٦م، خلفها على العرش ابنها إدوارد السابع. المنجد في الإعلام، ص ٥٢٩.

(٢) نص الجواب الذي أرسله القيصر الروسي إلى الملكة فيكتوريا حول طلبها بوقف القتال بين روسيا وتركيا: "إن قادة الجيوش الروسية في أوروبا وآسيا هم وحدهم يعرفون الشروط التي تتفق مع تحقيق وقف الحرب". هذا عني طبعاً إلزام الباب العالي بالتفاوض معه مباشرة. البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٣) ميناء أنتيفاري: أو أنتيفوري: مدينة تقع في جنوبي غربي إمارة الجبل الأسود، ميناء على البحر الأدرياتيكي. أطلس العالم الكبير، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٤٦٠.

(٤) نيس: أوبنيس مدينة في الجزء الغربي من يوغسلافيا حكمها الأتراك (١٣٨٦م) إلى (١٨٧٨م)، ومركز هام للسكك الحديدية، غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية المبسرة، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٦٦.

(٥) متروفتزا: مقاطعة تقع في شمال غرب صربيا حالياً بالقرب من الخلود الشرقية الكرواتية. أطلس العالم الكبير، مرجع سابق، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

- ٤- تدمير القلاع الواقعة على ضفتي نهر الدانوب.
- ٥- استقلال رومانيا وضم جزء من إقليم دوبروجيه^(١) إليها مقابل تنازلها لروسيا عن جنوب بساربيا^(٢).
- ٦- تنازل الدولة العثمانية لروسيا عن قلعة قارص^(٣) في أرمينيا وعن ميناء باطوم^(٤) وأراضٍ أخرى في آسيا.
- ٧- قيام بلغاريا الكبرى الممتدة من نهر الدانوب إلى بحر إيجه^(٥) مع تمتعها بالاستقلال الذاتي تحت الوصاية الروسية.
- ٨- فرض غرامة مالية كتعويضات على الدولة العثمانية بلغت (١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠) روبل^(٦) أي (٢٤٥,٢١٧,٣٩١ ليرة عثمانية)، وبسبب إفلاس الدولة العثمانية وعدم قدرتها على الدفع قبل القيصر الروسي بأن تتنازل الدولة العثمانية عن الأراضي التي سيطرت عليها في أثناء الحرب مع الروس.
- كما وافقت الدولة العثمانية على فتح المضائق في أوقات السلم والحرب أمام السفن الروسية^(٧).

-
- (١) إقليم دوبروجيه متطرفة في رومانيا وبلغاريا بين البحر الأسود ونهر الدانوب. المنجد في الأعلام، ص ٢٨٩.
 - (٢) بساربيا: منطقة في غرب الاتحاد السوفيتي (سابقاً) على حدود رومانيا وضاف البحر الأسود. المنجد في الأعلام، ص ١٣١.
 - (٣) قارص: وهي عبارة عن مدينة موجودة في شرق تركيا في أرمينيا أخذها الروس من الأتراك (١٨٨٢م) ولكنها ردت لهم (١٩٢١م). غربال، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٦٠.
 - (٤) باطوم: مرفأ على البحر الأسود وهو حالياً لتصدير النفط والفحم الحجري. المنجد في الأعلام، ص ١١٢.
 - (٥) بحر إيجه أو بحر الأرخبيل: يقع بين اليونان وتركيا وجزيرة كريت اسمه نسبة إلى والدنيوزوس ملك أثينا الأسطوري. المنجد في الأعلام، ص ١٠٠.
 - (٦) روبل: وهي وحدة العملة في روسيا ويقسم الروبل إلى ١٠٠ كوبيك. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ٥٧١.
 - (٧) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٣٣-٢٣٤. البرجواي، مرجع سابق، ص ٢٥٩-٢٦٠. العظيمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨-٣٣٩. فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: إحسان حفي، ٢٠٠٣، ط ٩، ص ٦٥١-٦٦٣. للتوسع في معاهدة سان اسٲفانو.

لم تحظ هذه المعاهدة باعتراف كل من إنكلترا وألمانيا فقد دعت هاتان الدولتان إلى مؤتمر ينعقد في برلين^(١) لمراجعة هذه المعاهدة وإعادة النظر في بنودها وبالتالي تسوية نتائج الحرب التركية الروسية. وقد وافقت روسيا مرغمة على قبول هذه الدعوة، فاجتمع المؤتمر في ١٣ حزيران ١٨٧٨م برئاسة الأمير بسمارك^(٢).

وبعد مناقشات ومفاوضات استمرت مدة الشهر وقعت معاهدة برلين في ١٣ تموز ١٨٧٨م وهي تحتوي على ٦٤ مادة وخلاصة ما جاء فيها ما يلي: منح رومانيا والجبل الأسود الاستقلال التام وبلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان العثماني وانتزعت منها مقدونيا^(٣).

أما الروملي بلغاريا الجنوبية، فقد جعلت ولاية مع استقلال ذاتي تحت سيادة الدولة العثمانية على أن يحكمها وال مسيحي وتخضع لرقابة الدول العظمى المشتركة.

أما روسيا فقد حصلت على باطوم^(٤) وقارص وإقليم بساريبا من رومانيا على أن تضم هذه الأخيرة إليها إقليم دوبروجيه الذي كان داخل في نطاق بلغاريا، وأما النمسا فقد أعطيت الحق باحتلال البوسنة والهرسك وسنجق-نوفي بازار^(٥) عسكرياً مع إدارتها دون فصلها رسمياً عن الدولة العثمانية أي أنها بقيت تابعة لها اسمياً.

(١) برلين: وهي عاصمة ألمانيا وبروسيا سابقاً، تقع شمال ألمانيا في مقاطعة براندنبورج على نهر شيري وهافل، كانت عاصمة بروسيا (١٧٠١م)، ثم توحدت مع ألمانيا (١٨٧١م)، احتلتها القوات الروسية والنمساوية (١٧٦٠م)، والفرنسيون (١٨٠٥م)، والخلفاء (١٩٤٥م). غريبال، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٥٢.

(٢) بسمارك: (١٨١٥-١٨٨٩) من مشاهير السياسيين الألمان، وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية، وجعلوا ألمانيا في مقدمة الدول الاستعمارية في القرن (١٩). المنجد في الإعلام، ص ١٣٢.

(٣) مقدونيا: بلاد في شبه جزيرة البلقان، دخلها الأتراك (١٣١٧م)، تقاسمها بعد الحرب العالمية الأولى كل من بلغاريا ويوغسلافيا واليونان. المنجد في الإعلام، ص ٦٧٩.

(٤) باطوم: مدينة تقع في إقليم جورجيا على البحر الأسود، تنازلت عنها تركيا لروسيا سنة (١٨٧٨م). غريبال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) سنجنق نوفا بازار: وهي مدينة في الصرب الغربية، احتلتها القوات النمساوية، وكان فيما سبق تركيا (١٨٨٩-١٩٠٨)، وانتقلت السيادة عليه إلى الصرب (١٩١٣م) بعد الحروب البلقانية. غريبال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٨٦٠.

وأما بالنسبة إلى اليونان فقد أضيف لها جزء من الأراضي لتوسيع حدودها من جهة الشمال مع أنها لم تشترك في الحرب، وطالب المؤتمر أيضاً بإجراء إصلاحات داخلية بشأن تحسين حال المسيحيين وخصوصاً الأرمن^(١)، وقد وقع معاهدة برلين كل من مندوبي الدول الآتية: ألمانيا، النمسا، المجر، فرنسا، بريطانيا العظمى، إيطاليا، روسيا - تركيا (الدولة العثمانية).

وكان من أهم نتائج هذه الحرب خسارة الدولة العثمانية لمعظم أجزاء شبه جزيرة البلقان في أوروبا حيث لم يبقَ فيها سوى تراقيا^(٢) أي ولايتي استانبول وأدرنة ومقدونيا وألبانيا^(٣).

لقد جرت أحداث هذه الحرب في فترة ولاية راشد ناشد باشا على دمشق حسبما أورد الحصيني في كتابه منتخبات تواريخ دمشق^(٤). ورغم كل هذه المفاوضات والمعاهدات لم تستقر الأوضاع في منطقة البلقان واستمر التمرد فيها ضد الدولة العثمانية، وكان من أسبابه الرئيسة التحريض الخارجي من قبل الدول المحيطة بهذه المناطق وخاصة روسية، والسبب الآخر هو نمو روح القومية بين هذه الشعوب مع إشراف القرن التاسع عشر على النهاية. ولكن لنا كلمة لقد أذهبت هذه الحرب ونتائجها هيبة الدولة العثمانية وأفقدتها الكثير من ممتلكاتها وكان الأجدر بالسلطان عبد الحميد الثاني أن يدفع بآخر جندي له في أرض المعركة على ألا يفقد جزءاً من هذه الأراضي، فمنذ ذلك الحين بدأ الانهيار الحقيقي في الدولة العثمانية يتراءى للجميع، وبدأت الدولة العثمانية شيئاً فشيئاً تخسر ممتلكاتها، كما استبيحت حدود هذه الدولة حتى أدى في النهاية إلى

(١) الأرمن: سنفرد لهم باباً خاصاً في الفقرات القادمة من البحث.

(٢) تراقيا: منطقة جنوب أوروبا الشرقية تنقسمها منذ (١٩١٩) اليونان وبلغاريا وتركيا. اليونان - بلغاريا (تراقيا الشمالية أو الروملي الشرقية) وتركيا (تراقيا الشرقية) وأهم مدنها استانبول. المنجد في الأعلام، ص ١٨٤.

(٣) انظر: البرحاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤، وانظر: أ.ج. حرائر وهارولد ميرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص ٢٤-٣١.

(٤) الحصيني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

سقوطها بشكل كامل وتقاسم أعضائها أراضي ممالكها ولاسيما العربية منها فيما بينهم.

خامساً: الحرب اليونانية العثمانية (١٣١٤هـ/١٨٩٧م):

استطاعت اليونان أن تحصل على استقلالها من الدولة العثمانية من خلال معاهدة أدرنة^(١) وذلك في سنة (١٢٤٥هـ/١٨٣٠م) بعدما خاض الشعب اليوناني العديد من المعارك والمواجهات مع الدولة العثمانية التي بدأت بإعلان الثورة والاستقلال عن الدولة في سنة (١٢٣٧هـ/١٨٢٢م)، فاستدعى الأمر استجداد السلطان بواليه في مصر محمد علي باشا الذي كاد أن يحرز الانتصار لولا الهزيمة التي لحقت بالأسطولين العثماني والمصري، وبالتالي اضطر السلطان محمود الثاني^(٢) أن يوقع اتفاقية أدرنة التي اعترفت بموجها الدولة العثمانية باستقلال اليونان عنها بالحدود التي وضعتها الدول الأوروبية في تلك المعاهدة^(٣).

ولكن اليونان لم تكن مقتنعة بتلك الحدود وكانت دائماً تحاول أن تكسب المزيد من الأراضي وتضمها إلى دولتها بين الحين والآخر، فقد طالبت من خلال حضورها في مؤتمر برلين السابق الذكر الذي عُقد لحل الأزمة الروسية العثمانية

(١) أدرنة: هي أكبر مدينة في تركيا بعد الأستانة وعاصمة ولاية أدرنة وكانت عاصمة السلطنة العثمانية قبل فتح القسطنطينية.

معاهدة أدرنة: وقعت في ٢٤ أيلول ١٨٢٩ بين السلطان العثماني محمود الثاني والقيصر الروسي نيقولا الأول، ونخلى العثمانيون بموجبها عن جزر الدانوب والمقاطعات التركية في القوقاز، واحتلال روسيا لولابني الدانوب مقابل حزية تدفعها روسيا للعثمانيين واستقلال اليونان. انظر محمد كمال، الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٧٦، ص ١٥١-١٥٢. وحفي العظم، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، ط١، مطبعة الترقى بمصر، (١٣١٩هـ/١٩٠٢م)، ص ١٠.

(٢) السلطان محمود الثاني: ولد سنة ١١٩٩هـ، وجلس على العرش سنة ١٢٢٣هـ الموافقة ١٨٠٨م وكان عمره ٢٤ سنة مدة سلطنته ٣٢ سنة، ومن أهم أعماله القضاء على الإنكشارية سنة ١٨٢٦م-١٨٢٨م، كما حدث في عهده استقلال اليونان سنة (١٢٤٥هـ-١٨٣٠م). حلبي، إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مرجع سابق، ص ٢٨٩-٢٩٤.

(٣) انظر: أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٧٧-٢٨٤.

بضم جزيرة كريت وتسالي وأبيروس^(١) إلى بلاد اليونان حيث وافق المؤتمرون على ضم كل من تسالية وأبيروس إلى اليونان^(٢). وبالنسبة لجزيرة كريت فقد بقيت تحت الحكم العثماني. ولكن اليونان لم تياس من الحصول على الجزيرة، فاستمرت في دعم أهالي جزيرة كريت من خلال المنظمات والجمعيات التي شكلتها فيها، وذلك من أجل المطالبة بضمها إلى الوطن الأم اليونان، وازدادت الخلافات حدة وشدة بين المسيحيين في الجزيرة والمسلمين الذين يشكلون الأقلية فيها.

كان أغلبية سكان جزيرة كريت من المسيحيين ذوي الأصول اليونانية، وهؤلاء قاموا بعدة محاولات في سبيل التمرد للتحرر والانضمام إلى الوطن الأم اليونان، ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل على الرغم من دعم الدول الأوروبية لهم^(٣).

وفي أثناء ثورة الأرمن^(٤) اغتتم السلطان عبد الحميد الثاني الفرصة لكي يعين حاكماً مسلماً على الجزيرة بدلاً من الحاكم المسيحي (الذي فرضته معاهدة برلين)، وكانت هذه الشعلة التي أوقدت الثورة في الجزيرة ضد العثمانيين حيث استتجد أهلها على الفور بالدولة اليونانية لمساعدتهم ضد العثمانيين، فقامت اليونان بإرسال قوات من الجيش اليوناني إلى الجزيرة.

ومع وصول طلائع الجيش المؤازرة إلى كريت، كانت الوحدات الأخرى من الجيش اليوناني قد اجتازت الحدود التركية، وبموجب أمر عسكري صدر في ١١ رمضان ١٣١٤ هـ / ١٢ شباط ١٨٩٧ م، أعلنت اليونان التي بلغ عدد جنودها حوالي ٢١٠٠٠٠ جندي الحرب على الدولة العثمانية فصدرت الإرادة السنية في ١٣ رمضان

(١) أبيرس: إقليم يقع شمال بلاد اليونان الغربي وجنوبي ألبانيا، أقيمت في عهد الصليبيين دولة مستقلة في نهاية القرن الثامن عشر، حاول علي باشا أسد بانبا إنشاء دولة مستقلة في أبيرس وألبانيا. غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج١، ص ٤٢.

(٢) الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) حول ثورة الأرمن سنذكر بالتفصيل في فقرة لاحقة، ص ٤٦.

١٣١٤هـ الموافق ١٥ شباط ١٨٩٧م بجمع الفرق العسكرية التالية: الفيلق الأول والثاني والثالث والرابع، وذلك لمواجهة القوات اليونانية^(١).

لقد وقف كلٌّ من ألمانيا والنمسا على الحياد في هذه الحرب، بينما دعمها كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. تالقت السفن اليونانية التي كان أغلب جنودها من المتطوعين مع خمس من السفن العثمانية باتجاه بحر مرمرة^(٢) محملة بما يقارب (١٥٠) ألف جندي عثماني، واشتبك الجيشان في حرب دامت ثلاثين يوماً أحرز فيها الجيش العثماني انتصاراً ساحقاً على اليونانيين، مما استدعى تدخل الدول الأوروبية الكبرى والتي قامت بإرسال سفنها الحربية إلى الجزيرة لمساندة القوات اليونانية.

وطالبت هذه الدول على الفور بعقد مؤتمر سلام في الآستانة من أجل حل القضية بين الطرفين فكانت النتيجة هي تجميد قضية كريت إلى إشعار آخر، وأيضاً إخراج القوات العثمانية من اليونان بعد أن أحرز الجيش العثماني تقدماً فيها، وبالتالي كانت النتيجة الفعلية هي تصحيح الحدود بين تركيا واليونان، وكان مجموع ما استردته الدولة من إقليم تساليا هو عبارة عن قريتين فقط، وأجبرت اليونان على دفع غرامة حربية (أربعة ملايين جنيه)^(٣) كلفة الحملة العثمانية^(٤)، ومن نتائجها أيضاً تهجير العديد من المسلمين الكريتيين من الجزيرة، وترحيلهم إلى كل من دمشق ولهم الذين سكنوا حي المهاجرين الذي نسب إليهم (سبق ذكره).

(١) للتوسع انظر البرحاوي، أحمد سعيد، الأباطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٩. وانظر: العظم، حفي، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢) بحر مرمرة: بحر داخلي منفرد عن المتوسط يفصل أوروبا (ترابيا التركية) عن آسيا (تركيا الآسيوية) يتصل بالبحر الأسود بواسطة البوسفور وبحر إيجه بواسطة الدردنيل فيه العديد من الجزر أهمها مرمرة. المتجدد في الأعلام، ص ٦٥٦.

(٣) الجنيه: وهو وحدة عملة الدول المشتركة في مجموعة الكومنولث ويرتبط بالجنيه الإنكليزي (الإسترليني) وهناك جنيه أسترالي ونيوزلندي وإيرلندي وسوداني وغانغي وغيرها. عطية الله، أحمد، مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٤) انظر: البرحاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٩-٢٧٠. أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٢١-٣٢٢. والعظمة، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٣٥٨. والعظم، حفي، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، مصر، مطبعة الترقى، ط١، ١٩٠٢، ص ٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧.

والبعض ذهب إلى الإسكندرية ومجموعة أخرى أسكنت منطقة الجبل الأخضر في برقة في ليبيا^(١).

ساجساً: مجلس المبعوثان:

لا بد لنا قبل الحديث عن مجلس المبعوثان من أن نتكلم عن أول دستور صدر في الدولة في بداية حكم السلطان عبد الحميد الثاني. هذا الدستور الذي من خلاله صدرت المراسيم بتشكيل ما سمي بمجلس الأعيان ومجلس المبعوثان (النواب) والذي ضم ممثلين عن الولايات في الدولة العثمانية كما سنورد في شرح كيفية تشكيل هذين المجلسين فيما بعد.

الدستور:

الدستور كلمة فارسية الأصل دخلت اللغة التركية ثم شاعت في اللغة العربية وأصبحت لها عدة معانٍ تطورت مع الزمن، غير أن لفظ دستور يطلق اليوم في أكثر الدول بمعنى القانون النظامي أو القانون الأساسي أو مجموع القواعد الأساسية التي تقرر الحكم للدولة وسلطة الحكومة وطرق توزيع هذه السلطة وكيفية استعمالها كما تبين حقوق الأفراد وواجباتهم^(٢). ولقد سمي الأتراك الدستور باسم القانون الأساسي، كما اصطالحوا تسمية العهد الدستوري بـ عهد المشروطية، والمشروطية تعني أن تكون سلطة السلطان مقيدة أو مشروطة بقيود يعينها ويقررها الدستور^(٣).

(١) أرسلان، شكيب، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(٢) أحمد عطية، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ٥٢١-٥٢٢.

(٣) محمد عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤م)، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٥٢١. وانظر: الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠، ص ٩٧.

الدستور القديم:

توفي السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م^(١) عن ملك ضخم وغادر الدولة إبان مجدها وأوج عظمتها، ولكن خلفاءه من بعده لم يتمكنوا من الحفاظ على كيان هذه الدولة مهابة الجانب كما كانت في عهده، واستبدت الإنكشارية بالحكم وخاصة في عهد السلطان سليم الثالث^(٢) سنة ١٧٨٩م الذي أراد أن يقوم بشيء من الإصلاح فلمّح وصرّح فيما بعد بميله إلى ترتيب الجند على النمط الحديث، فكانت النتيجة أن بطش به الإنكشارية ومات الإصلاح في مهده. غير أن السلطان محمود الثاني (١٧٨٤هـ-١٨٣٩م)، استطاع أن يطبق هذا الإصلاح وذلك بالقضاء على الجيش الإنكشاري وإحلال جيش منظم مكانه. لكن إصلاحاته اقتصرت على النواحي العسكرية، والقليل من المسائل الداخلية. وفي عهد السلطان عبد المجيد^(٣) قام بإصدار مرسوم الكلخانة (غرفة الورد) المشهور سنة ١٨٣٩م في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥هـ، وكان الهدف منه حل المسألة اليونانية والاتفاق مع محمد علي والي مصر، وذلك إرضاءً للضغوطات الأوروبية^(٤) ولقد أحدث هذا المرسوم ضجة اهتزت لها أوروبا وأخذ رجال الدولة منذ ذلك الحين ينظمون القوانين الخاصة لكل

(١) سليمان القانوني: ولد في أول شعبان سنة ٩٠٠هـ - ١٤٩٤م وحلّس على العرش في ٤ شوال سنة ٩٢٦هـ - ١٥١٩م من أهم ما جرى في عهده ثورة جان برد الغزالي والي الشام وقد لقب بالقانوني لحنه لتطبيق القانون وتطويره. حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مرجع سابق، ص ١٢١-١٣٠.

(٢) سليم الثالث: ولد سنة (١١٧٥هـ-١٧٦١م) وحلّس على العرش سنة (١٢٠٣هـ-١٧٨٨م)، وكان عمره ٢٨ سنة، مدة سلطنته حوالي ٢٠ سنة، كان غبوراً على المملكة فظيماً استبشر الناس به خيراً، وأهم ما جرى في عهده الحملة الفرنسية على مصر ١٧١٨م، حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص ٢٦٧-٢٨٢.

(٣) عبد المجيد: ولد سنة ١٢٣٧هـ وحلّس على العرش سنة ١٢٥٥هـ-١٨٣٩م وكان عمره ١٨ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة، وفي عهده صدر مرسوم الكلخانة القاضي بمساواة جميع أفراد المجتمع العثماني ببعضهم). حليم بك، إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٩٩-٣٠٢.

(٤) العنزاوي، قيس جواد، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، الدار العربية للعلوم، ط ١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص ٥٩.

فرع من فروع الإدارة والقضاء، وكانت أعظم الأعمال التنظيمية في الدولة في تلك المرحلة هي ما سمي بمجلة الأحكام الشرعية^(١).

وقام أيضاً الإصلاحيون قبل تلك المرحلة بنشر قانون الأراضي سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م وقانون الطابو وقانون الجزاء سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م. وقانون التجارة سنة ١٢٨٨هـ-١٨٧١م^(٢)، وكانوا يستوحون هذه القوانين من القوانين الأوروبية وخاصة الفرنسية منها ناظرين إلى عدم مخالفة النصوص الشرعية. ووضعوا أيضاً قانون التبعية العثمانية، وقانون ترتيب المحاكم الشرعية، والمحاكم النظامية والمحاكم التجارية، ونظام الإدارة والملكية، ونظام إدارة الولايات، ونظام شورى الدولة، ووضعوا نظاماً للمعارف، ونظاماً للمطبوعات والمطابع وحقوق الطبع والتأليف والترجمة، ونظاماً للرسمات، وآخر للمعادن، وآخر للطرق والمعابد، وبذلك لم يتركوا شيئاً من لوازم إدارة الدولة حتى وضعوا لها قانوناً، ومجموع هذه القوانين والنظامات هو الذي كان معروفاً في بلاد

(١) مجلة الأحكام الشرعية وهي عبارة عن كتاب وحد القوانين القضائية في البلاد وذلك اعتماداً على قرار اللجنة التي ألفت في ذلك الوقت، وكان أبرز أعضائها حودت باشا ناظر ديوان الأحكام العلية وبعض أعضاء ذلك الديوان وأعضاء شورى الدولة والأوقاف وغيرهم من العلماء كعلاء الدين بن عابدين فظفوا ذلك الكتاب، وأصدر السلطان عبد العزيز الإرادة السنية بشأنه سنة ١٨٧٢م). البستاني، سليمان، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢-٨٣.

والسلطان عبد العزيز ولد سنة ١٢٤٥هـ، وجلس على العرش سنة ١٢٧٧هـ-١٨٦١م، وكان عمره ٣٢ سنة، في عهده حاول مدحت باشا تطبيق القانون الأساسي في البلاد، ولكن رفضه السلطان وعزله عن الصدارة العظمى. حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص ٣٠٧-٣١١.

(٢) ذكر محمد مختار باشا: صاحب كتاب التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ المحررة بالسنين الإفرنجية والقبضية: أنه في ١٣ تموز سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م (٢٤ شوال) صدرت لائحة تكفل فصل مشاكل الأطباء الخراجية في الديار المصرية ص ١٣٢٠. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ط ١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م). جزآن، الجزء الثاني.

وذكر أيضاً في الكتاب نفسه أنه في ١٣ جمادى الثاني ١٢٨٨هـ-١٨٧١م: صدر أمر عال بخصوص لائحة المقابلة التي تتعلق بتأسيس إصلاحات مالية في البلاد المصرية، وفي ٦ شوال من العام نفسه صدر أمر عال بترتيب مجالس فقهاء الزراعة بحالة مستندمة بدلاً عما كانت في مواسم معينة في السنة. ص ١٣٣٦.

الدولة العثمانية باسم الدستور (Code)^(١) ولكن الحكم كان لا يزال مطلقاً وإرادة السلطان فيه فوق كل إرادة يلغي ويضع ما يشاء من الأحكام وليست ثمة قيود عليه وعلى أفعاله.

الدستور الجديد (القانون الأساسي):

وفي المدة الوجيزة التي جلس فيها السلطان مراد الخامس^(٢) على عرش السلطنة كان مدحت باشا (أبو الدستور - سالف الذكر ١٢٣٨-١٣٠١هـ/ ١٨٢٢-١٨٨٤م) وأنصاره قد انتهوا من إعداد القانون الأساسي وترتيب نظام مجلس المبعوثان، فما أن تولى السلطان عبد الحميد الثاني السلطة حتى كانت قوانين الدولة قد أصبحت محكمة الوضع والترتيب تنافس في تسييقها وأحكامها قوانين وأحكام أرقى الدول الأوروبية في تلك المرحلة.

ولدى تكليف السلطان عبد الحميد الثاني مدحت باشا بمنصب الصدارة العظمى في ٤ ذي الحجة ١٢٩٣هـ الموافق ١٦ كانون الأول ١٨٧٦م^(٣) قام هذا الأخير على الفور بإصدار أول دستور للدولة العثمانية، وذلك لكي يتجنب رغبة الدول الأوروبية في التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية عقب أحداث الحرب مع روسية، وذلك بحجة رعاية حقوق الرعايا العثمانيين المسيحيين فألف مدحت باشا لجنة من ستة عشر موظفاً مدنياً، عشرة من علماء كبار رجال الدين وقائدين كبيرين من قادة الجيش، وعهد إليها مشروع صياغة دستور جديد للبلاد، وحين اجتمع مندوبو الدول الأوروبية صباح يوم ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦ في أول جلسة لمؤتمر

(١) تعني المتنونة مجموعة قوانين دستور شفرة كتابة سرية ينظم أو يدرج في متنونة. Code البعلبكي، منبر، المورد الوسيط، دار العلم للملايين، ط١، ص ١٢٠.

Moonir baalbaki Dr. Roht Baaibaki alwarri d.al-wasee7, concise dictionry English B:(120)

(٢) السلطان مراد الخامس: (١٨٤٠م-١٩٠٤م): سلطان الدولة (١٨٧٦م) بن السلطان عبد المجيد - ارتقى العرش بعد خلع عبد العزيز ولكن ما لبث أن أعلن أنه مخبول وخلفه أخوه السلطان عبد الحميد الثاني. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج٢، ص ١٦٧٧.

(٣) جاء في كتاب التكليل الذي وجه له: (ولما كنتم جامعين للصفات المطلوبة والمستقبلة وجهنا منصب الصدارة لعهدنا حينئذ). انظر عبد العزيز، محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٠.

القسطنطينية كان أول ما سمعوه هو صوت طلقات المدافع تحيي إعلان إصدار أول دستور للدولة العثمانية، وهذا الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني بمساعدة مدحت باشا وإشرافه تحت اسم "قانون أساسي" يمثل خطوة طيبة على طريق الإصلاح في البلاد، فقد نص على إلغاء امتيازات العاصمة استانبول التي كانت تميز سكانها عن بقية سكان المدن والولايات الأخرى التي كانت تتمتع بنظم إدارية خاصة بها، وكان سكانها لا يدفعون ضريبة الدخل ولا يطالبون بأداء الخدمة العسكرية، وأطلق الدستور لفظ العثمانيين على جميع رعايا الدولة دون تفرقة، كما أقر للجميع الحرية الشخصية، ونص الدستور على أن دين الدولة هو الدين الإسلامي وأن الدولة تتولى حماية جميع المذاهب الدينية المعترف بها أيضاً، وتضمن حرية الصحافة في حدود ما يقره القانون، وتفتح المجال أمام كل العثمانيين لشغل مناصب الدولة وفقاً لكفاءتهم ودون تفرقة بشرط إجادة اللغة التركية، ووضع دستور السلطة التشريعية في البلاد في يد مجلسين أحدهما للنواب وهو مجلس المبعوثان والآخر للشيوخ وهو مجلس الأعيان على أن يتمتع الأعضاء في المجلسين بحصانة برلمانية تمنع عنهم أي ضرر بسبب إبدائهم رأيهم وأن يعين السلطان أعضاء مجلس الأعيان ورئيسهم مدى الحياة، أما أعضاء مجلس النواب فيكون بالانتخاب^(١) كما سنورد في الفقرة التالية.

ولقد قررت أيضاً اللجنة الدستورية بأن يكون مجلس النواب مسؤولاً عن ميزانية الدولة وأن تكون جلسات هذا المجلس علنية وأن تنشأ محكمة عليا مؤلفة من عشرة أعضاء في مجلس الأعيان وعشرة مستشاري دولة وعشرة مستشارين في محكمة الاستئناف يكون من صلاحيتها مقاضاة الوزراء والرؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف والمتهمين بالعصيان والخيانة العظمى وأن تقوم إدارة الولايات على أساس اللامركزية وأن يكون التعليم الابتدائي إلزامياً بالنسبة إلى جميع العثمانيين^(٢).

(١) الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٥، ١٩٦٨، ص ٥٨٦-٥٨٧.

اشتقت مواد هذا الدستور من الدستور البلجيكي وذلك بعد تعديله بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية باعتبارها دين الدولة العثمانية^(١).

وكان نشر الدستور سبباً في التفاف الشعب حول السلطان عبد الحميد الثاني وفشل المؤتمر الأوربي في القيام بأي عمل من شأنه التدخل في سياسة الدولة العثمانية، ولكن سرعان ما بدأ السلطان عبد الحميد الثاني بتحطيم ذلك الدستور، فعزل مدحت باشا (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م)^(٢)، وأخذ يتعقب الأحرار وينفي دعاة الدستور والحرية، وأتهم الدستور بأن الهدف من إعلانه هو سياسي أكثر من أن يكون اجتماعياً وأن قوانينه ليست إسلامية وأنها أدت إلى تقوية السلطة المركزية وفتحت الأبواب أمام النفوذ الأجنبي في البلاد، وهكذا صدر الحكم بإعدام مدحت باشا لاتهامه بالخيانة وبقتل السلطان عبد العزيز، ولكن الضغوطات الدولية خففت العقوبة إلى النفي مدى الحياة، والحقيقة أن السلطان عبد الحميد الثاني قد وافق على إصدار الدستور في البداية بهدف مواجهة الضغوطات الدولية ولكن حين واتته الفرصة أزاح مدحت والمصلحين الدستوريين الذين رأى في نشاطهم السياسي ما يفرض قيوداً على سلطته، ثم ما لبث أن أوقف الحياة النيابية ولجأ إلى الحكم الفردي المستند إلى بعض المفاهيم الإسلامية^(٣).

ولكن فيما بعد اضطر السلطان عبد الحميد الثاني في أواخر حكمه من أن يعلن الدستور نفسه للمرة الثانية وذلك بسبب الضغوطات التي مارسها عليه أعضاء اللجنة المركزية لحركة الاتحاد والترقي وكان ذلك في ١٨ تموز ١٩٠٨م فصدر الخط الهمايوني الخاص بهذا الموضوع في ٦ رجب ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ تموز ١٩٠٨م^(٤).

(١) حسون، علي، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٢) بجي، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، د.ط، ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) أحمد عبد الرحيم، مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، بيروت، ص ٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦.

(٤) انظر البرجاوي، سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٧٢، وللتوسع في نص الخط الهمايوني، نفس المرجع، ص ٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥.

وبذلك عادت البلاد إلى الحياة النيابية من جديد على الرغم من إرادة السلطان عبد الحميد الثاني.

المجلس العمومي:

مع إعلان الدستور في ٢٣ كانون الأول ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م، الذي تضمن ١١٩ مادة مستوحاة من الدستور البلجيكي، كان من ضمن نصوص هذا القانون إقامة ما سمي المجلس العمومي، ويتألف من مجلس المبعوثان (النواب) المنتخب ومجلس الشيوخ (الأعيان) المعين من قبل الباب العالي^(١).

إن المجلس العمومي هو محور القانون الأساسي أي أساس الدستور، ويتكون من هئتين: الأول: هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثان، وتجتمع كلتاهما في أول تشرين الثاني من كل عام، ويكون افتتاح وفوض دورتيهما العاديتين (وتستغرقان أربعة أشهر) بإرادة سنوية^(٢)، ويحق للسلطان دعوة المجلس العمومي وافتتاحه قبل الموعد المحدد له، وله الحق أيضاً في إطالة مدة انعقاده.

يفتح المجلس السلطان أو الصدر الأعظم أو نائب عنه في حالة الغياب، ويتمتع أعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي وبالحصانة ضد التهم الموجهة إليهم بسبب إبداء آرائهم أو بيان أفكارهم، وورد في المادة (٥٠) من القانون الأساسي أيضاً أنه لا يجوز الجمع بين عضوية الأعيان والمبعوثان في الوقت نفسه^(٣).

أ - تأليف مجلس الأعيان:

اشتراط القانون الأساسي أن يكون عدد أعضاء مجلس الأعيان ثلث أعضاء مجلس المبعوثان، ويتم تعيينهم من قبل السلطان مباشرة من الأشخاص الذين لهم خدمات جليلة ومشهورة في الدولة كالوزراء والولاة والمشيرين وقضاة العسكر والسفراء والبطارقة السابقين، ويشترط في العضو أن يكون قد بلغ الأربعين من العمر ومدة العضوية مدى

(١) البرجوازي، سعيد، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٢) فارس، سليم، كثر الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية، ط١، ١٩٢٥، ص ١٢.

(٣) فارس، سليم، مصدر سابق، ص ١٣-١٤، عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق،

الحياة، وأما بالنسبة لمهمة أعضاء هذا المجلس فهي التدقيق في القوانين واللوائح التي تصدر عن مجلس المبعوثان، ولها الحق في رفض هذه القوانين قطعياً أو ردها إلى مجلس المبعوثان لإعادة النظر فيها وتعديلها، وفي حال تمت الموافقة على هذه القوانين واللوائح فإنها ترفع إلى الصدر الأعظم للموافقة عليها بشكل نهائي^(١).

ب - تأليف مجلس المبعوثان:

(وذلك بكسر الحرف الأخير من الكلمة الأولى على قاعدة الإضافة الفارسية وزيادة علامة الجمع على الكلمة الثانية، مبعوث، أي مجلسي مبعوثان)^(٢).

ونص الدستور على أنه كل خمسين ألف نفس من ذكور الدولة العثمانية يمثلها عضو منتخب في مجلس المبعوثان، ويتم هذا الأمر ضمن انتخابات سرية.

وأما بالنسبة لأهم الشروط اللازم توفرها في العضو فهي ما يلي:

١. أن يكون تابعاً للدولة العثمانية أي من مواطنيها.
٢. أن يكون متقناً للغة التركية.
٣. أن يكون قد أكمل الثلاثين عاماً.
٤. أن لا تكون عليه أحكام جزائية أو أحكام بالحجر، ولا يجوز لعضو في هذا المجلس أن يجمع بين عضويته في المجلس ووظيفة حكومية أخرى - باستثناء الوزارة.

وتجرى الانتخابات لهذا المجلس كل أربع سنوات، وتكون هذه مدة عضوية العضو في المجلس، ويحق له أن يرشح نفسه مرة ثانية في دورة أخرى، ويحصل على العضوية مرة أخرى، كما نص الدستور على أن العضو لا يمثل فقط المنطقة التي انتخب عنها أي لا يكون وكيلاً عن الدائرة التي انتخبته وإنما يكون في حكم وكيل عموم العثمانيين، وتناقش قضايا المجلس وتتلّى مذكرته بشكل علني ويجتمع الأعضاء بموافقة السلطان وحضور نائب عنه في المجلس^(٣).

(١) فارس، سليم، كنز الرغائب في منتخبات الجواب، ص ١٥-١٦، عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٣) فارس، سليم، مرجع سابق، ص ١٥-١٩.

جرت الانتخابات لمجلس المبعوثان لأول مرة في ١٠ شوال ١٢٩٣هـ / ٢٨ تشرين الثاني ١٨٧٦م^(١)، ولقد قرر عدد النفوس في الولاية بشكل تقريبي فلم يكن قد أُجري إحصاء لعدد النفوس منذ فترة طويلة في الدولة^(٢)، ومنحت المجالس الإدارية حق انتخاب النواب وذلك باعتبار أن هذه المجالس منتخبة من الشعب وبالتالي هي ممثلة له فانتخابها بمثابة انتخاب الشعب لهم.

أما عن كيفية إجراء الانتخابات فتسلم كل ولاية من استانبول لائحة بعدد النواب الذين سيجري انتخابهم من كل دائرة من دوائر الولايات العثمانية موضحاً فيها عدد النواب المسلمين وغير المسلمين، ويبلغ كل من متصرف الولاية^(٣) وقائم مقام^(٤) الأقضية بهذه اللائحة، وبعدها تبدأ المجالس الإدارية المختلفة في الولاية وألويتها وأقضيتها بانتخاب النواب المطلوبين، ثم ترفع أسماء المرشحين ضمن ظروف مختومة وترفع إلى والي، ثم يرسل والي جميع الأوراق الانتخابية إلى مجلس الدولة في استانبول لإعادة فحصها وتدقيقها^(٥).

لقد فاز في الانتخابات التي جرت لأول مرة في الدولة العثمانية في عام ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م عن ولاية سورية توفيق أفندي القدسي^(٦) وخالد أفندي الأتاسي^(٧) عن

(١) عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، يوسف، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٣) منصرف الولاية: وهو مثل والي في اللواء ويعين بإرادة سلطانية ويخول حق الإشراف على الأمور الملكية والمالية والأمن ضمن دائرة الدولة. عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٤) قائم مقام الأقضية: رتبة عسكرية تقابلها اليوم رتبة عقيد الحاكم الإداري للفضاء باسم القائم مقام، والأقضية هي الأقسام الإدارية للواء وعلى رأس اللواء المنصرف أو المحافظ وما زال الاصطلاح مستعملاً في بعض أنحاء الدول العربية كالعراق وليبيا. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، ص ٩١٤.

(٥) عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٦) توفيق أفندي القدسي: وهو من بني القدسي في دمشق وهم ينتسبون إلى العائلة الحسينية ويعرفون بآل الحسيني ويرجعون بأصولهم إلى مدينة القدس وكان تاجراً في الآستانة تولى رئاسة محكمة الحقوق في جدة الحجاز ثم انتخب سنة ١٢٩٢هـ عن دمشق عضواً في مجلس الأمة ذهب ثروته العظيمة في لعب البورصة ومات فقيراً سنة ١٣٣٩هـ. الحصني، محمد أديب، منتخبات نواب دمشق، مرجع سابق، ص ٨٩٠.

حمص ونوفل بك^(٢) عن لواء طرابلس الشام وحسين أفندي بيهم^(٣) عن بيروت ويوسف ضيا أفندي الخالدي^(٤) عن القدس ونقولا أفندي النقاش^(٥) عن طرابلس و خليل أفندي غانم^(٦) عن بيروت.

وكان جميع هؤلاء النواب من العرب وقد بلغ عدد الأعضاء العرب في هذا المجلس ستة عشر نائباً منهم خمسة نواب عن ولاية سوريا ونائبان عن الحجاز وأربعة نواب عن ولاية حلب وثلاثة عن ولاية بغداد واثنان عن ولاية طرابلس الغرب، فيما بلغ عدد نواب

(١) خالد أفندي الأناسي: (١٢٥٣-١٣٢٦هـ-١٨٣٧-١٩٠٨م) خالد بن محمد بن عبد الستار الأناسي - متشرع مفعي حمص مولده ووفاته فيها، اشتغل بالفقه والأدب وهو والد الرئيس هاشم الأناسي رئيس سوريا بعد الاستقلال. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٩٨.

(٢) نوفل بك: نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل (١٢٢٧-١٣٠٥هـ-١٨١٢-١٨٨٧م) أديب مترجم من أهل طرابلس الشام مولده ووفاته فيها، تعلم في مصر وعين ترجماناً لبعض الفصليات في بيروت وكان بحسن التركيبة - والفرنسية من كتبه (صفحة الطرب) (زبد الصخائف في أصول المعارف) و(كشف اللثام في تاريخ مصر والشام) و(الدستور) جزاء و(حقوق الأمة). الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج ٨، ص ٥٥.

(٣) حسين أفندي بيهم: (١٢٤٩-١٢٩٨هـ-١٨٣٣-١٨٨١م) حسين بن عمر بن حسين العناني بيهم الببروني، مولده ووفاته في بيروت، كان من وجهائها انتخب نائباً عن بيروت في مجلس النواب العثماني وتولى رئاسة الجمعية العلمية السورية لها. وكلمة بيهم عامية ببرونية تعني أبوه. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٢.

(٤) يوسف ضيا أفندي الخالدي (١٢٥٨-١٣٢٤هـ-١٨٤٢-١٩٠٦م) محمد بن السيد علي الخالدي المقدسي: صاحب الهدية الحميدية في اللغة الكردية وهو معجم من اللغة العربية وقواعد لتلك اللغة مولده ووفاته في القدس. كان أبوه قاضياً في ولاية أرضروم تولى عدة مناصب في الدولة فلقد كان رئيس المجلس البلدي في القدس لمدة ٩ سنوات والترجمة في الباب العالي وذكر في أحد رسائله انه كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. الزركلي، مرجع سابق، ج ٨، ص ٢٣٥.

(٥) نقولا أفندي نقاش: نقولا بن إلياس بن ميخائيل (١٢٤٠-١٣١٢هـ-١٨٢٥-١٨٩٤م): محام له علم القضاء مولده ووفاته في بيروت أنشأ جريدة "المصباح" فعاشت ٢٨ سنة، عمل بالخمارة وترجم إلى العربية كثيراً من القوانين العثمانية منها (كليات شرح الجزاء) وكان حسن الإنشاء. الزركلي، مرجع سابق، ج ٨، ص ٤٥.

(٦) خليل أفندي غانم: (١٢٦٢-١٣٢١هـ-١٨٤٦-١٩٠٣م) ابن إبراهيم بن خليل غانم باحث في اللغات الأجنبية، ولد في بيروت وولي عدة مناصب واتصل بوالى سوريا أسعد باشا العظم الذي أصبح صديقاً عظيماً فيما بعد فجعله ترجماناً للصدارة سنة ١٢٩٢هـ أنشأ جريدة البصر وعمل في التجارة والكتابة في الصحف أواخر أيامه. الزركلي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣١٣.

الدولة العثمانية ككل ١١٥ عضواً بالإضافة إلى الرئيس ووكيلين للرئيس وبذلك يكون عدد النواب ١١٨ مبعوثاً^(١).

وفي ٤ ربيع الأول ١٢٩٤هـ ١٩ آذار ١٨٧٧م افتتح المجلس العثماني أول جلسة له في سراي دولة بانجة (بشكلاش)، وحضر النواب من جميع أنحاء الدولة وألقيت خطبة عن لسان السلطان وبحضوره^(٢).

ثم بدأت المناقشات بين النواب حامية محترمة، وكان النواب يطالبون بإعطاء صلاحيات أكبر لمجلس المبعوثان وعلى جعل الحكم دستورياً تشترك فيه الأمة بواسطة نوابها وغيرها من المطالب وخاصة التي طالبت بالحد من السلطة المطلقة للسلطان، وهذا ما أزعج السلطان وعداً الأمر تجاوزاً لصلاحيته، فندم على دعوة البرلمان للانعقاد وأصدر إرادة شاهانية بحله مؤقتاً، وأمر بنفي عدد من الأحرار والمصلحين من البلاد وعلى رأسهم كما أسلفنا مدحت باشا^(٣).

وبعد نشوب الحرب الروسية العثمانية في سنة ١٨٧٨م، قام السلطان بدعوة المجلس النيابي مرة ثانية للانعقاد، وألقي فيه الخطاب السلطاني والذي جاء فيه:

١. الثناء على الجيوش العثمانية التي تحارب ببسالة ضد العدو الروسي.

٢. عزم الحكومة على تجنيد الشباب المسيحيين أسوة بالمواطنين المسلمين.

وفي الجلسات التي تلت انتقد النواب الحكومة العثمانية على تقصيرها في مهامها، مما أدى إلى تقدم الجيوش الروسية في الأراضي العثمانية وسقوط قلعة بلاقنا في أيديهم، وكذلك انتقدوا احتفاظ الوزراء بكامل رواتبهم بينما يفرضون الضرائب الباهظة على الشعب بحجة إنفاقها في الحرب وهذا بالطبع أدى إلى امتعاض السلطان وغضبه ونتيجة لذلك قام السلطان عبد الحميد الثاني في يوم ١٣ شباط ١٨٧٨م بإصدار مرسوم سلطاني أمر فيه بحل المجلس النيابي بحجة الظروف

(١) عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية مرجع سابق ص ٤٣-٤٤. فارس، سليم، مصدر سابق ص ١٠٢-١٠٥. العظمة، عبد العزيز، مرآة المنام، مرجع سابق، ص ٣٤١.

(٢) للتوسع في خطبة السلطان التي أُلقيت في المجلس انظر: أرسلان، شكيب، تاريخ النولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣٥.

(٣) البرحاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

الاستثنائية التي تمر بها البلاد وذلك إلى أجل غير مسمى^(١) وبالتالي تعليق دستور ١٨٧٦م إلى أن أرغم على إعلانه مرة ثانية في تموز ١٩٠٨م. والغريب في الأمر أن تعليق الدستور من قبل السلطان لم يلقَ أي ردة فعل في البلاد^(٢). ويمكن القول إن تعليل ذلك هو أن فكرة الديمقراطية وممارسة الحريات لم تكن قد تبلورت بعد في أذهان الشعوب التي يحكمها العثمانيون، فلقد تعودت هذه الشعوب على أن تسمع وتطيع فقط وليس لها من رأي أو إرادة في الاعتراض ولم يحدث الأمر هزة تذكر إلا بين الأحرار الذين ناضلوا من أجل قيام هذا الدستور وعلى رأسهم مدحت باشا والمفكرين والمستيرين الذين أحاطوا به.

لقد انتهت حقبة من الحكم الدستوري لم تدم أكثر من عام (١٩ آذار ١٨٧٧ إلى ١٣ شباط ١٨٧٨) وكانت هذه التجربة الديمقراطية الأولى في الدولة العثمانية لكنها كانت تجربة فاشلة، وحسبما تظهر الوقائع في تلك المرحلة، فإن ذلك يعود إلى عدم نضوج فكرة ممارسة الحريات في البلاد، وأيضاً بسبب التخوف من التغيير الذي كان يعتقد أنه سيجلب معه الغرب وأطماعه إلى المنطقة، فكانت النهاية الحتمية لهذه التجربة.

سابعاً: أهم الثورات والحركات القومية في تلك المرحلة:

شهدت هذه المرحلة الكثير من الفتن والثورات ضد الدولة العثمانية وضد فكرها وذلك تزامناً مع ظهور فكرة القوميات التي بدأت في أوروبا، وأخذت تتقدم زاحفة نحو البلاد العثمانية^(٣). عابرة إليها من أوروبا إلى مناطق البلقان عبر الحدود

(١) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٢٥. عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) القومية: لفظة قومية هي نسبة إلى قوم وقد وضعت حديثاً لترجمة لفظة *Nationalism* التي وجدت في أوروبا في القرن الثامن عشر وتعني إرادة مجموعة من الناس وعن طريق خصوصياتها التاريخية لإنشاء دولة مستقلة لها وتطورها، وكلمة "قوم" تعني الأمة وقد اشتق مفهوم الأمة كما يدل الأصل اللاتيني من العرق وقد

الشمالية لتركية وخاصة مع روسيا فنما الفكر والوعي القومي في هذه المناطق التي أخذت تطالب باستقلالها عن الدولة العثمانية وأن يكون لها دولة خاصة مستقلة تتمتع فيها بوحدة كيائها الجغرافي والبشري والقومي، فنشبت الثورات في كل من بلاد الصرب والبوسنة والهرسك وجزيرة كريت، واشتعلت منطقة البلقان بالانتفاضات وأدت إلى نشوب حرب دولية ما بين الدولة العثمانية ودول عظمى أخرى مثل روسيا وإنكلترا وفرنسا، وكانت النتيجة كما مر معنا سابقاً استقلال بعض هذه المناطق عن الدولة العثمانية، وقد شجع هذا الأمر باقي الشعوب الخاضعة للحكم العثماني على التمرد والمطالبة باستقلال مماثل عن كيان السلطنة العثمانية، ولكن سنقتصر في هذه الفترة على ذكر الفتن والثورات المحلية التي حصلت في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وكان من أشهرها وأكثرها خطورة ما سمي بمشكلة الأرمن أو ثورة الأرمن^(١). التي ما تزال هذه القضية مثار جدل في العالم وخاصة بين أرمينية^(٢) الحديثة وتركيا من أجل حل قضية المذابح الأرمنية التي حصلت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني والتي استمرت حتى سقوط الخلافة العثمانية ١٩٢٣ وسقوط حكومة الاتحاديين في تركيا.

تطور المفهوم ليشمل معنى الأرض الذي يعيش عليها أفراد ذوو عرق واحد وثقافة واحدة، ولغة واحدة، وتاريخ واحد. مبيض، عامر رشيد، موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، دار المعارف، حمص، سوريا، ط١، ١٤٢٠/٥، ص ٢٠٠، ص ١٠٢٥.

(١) الأرمن: شعب هنلأوروبي استوطن أولاً بلاد أرمينيا حول بحيرة وان، ثم نزح قسم منهم في القرن ١١ إلى كليكيا حيث أسسوا مملكة أرمينيا الصغرى، بقيت منهم جاليات كبيرة في المدن بعد سقوط هذه المملكة، اصطدموا بالدولة العثمانية في محاولتها التحريرية في أواخر القرن ١٩ وتعرضوا لأحداث دامية ومذابح على يد العثمانيين سنة (١٨٩٤-١٨٩٥) وسنة (١٩٠٩-١٩١٥) وتشتوا في البلدان العربية والأوربية والأمريكتين. المنجد في الأعلام ص ٣٦.

(٢) أرمينيا هي أجناد وجبال تنخللها سهول مرتفعة في آسيا الصغرى جنوبي القفقاس بين أجناد إيران شرقاً والأناضول غرباً وبين بحر قزوين ومسيل الفرات الأعلى يجتازها نهر أراس. المنجد في الأعلام ص ٣٦.

أ - فتنة الأرمن:

أرمينيا: أرمنستان وهي وطن الشعب الأرمني وإليه يتسبب هذا الشعب وأسلافهم الخالديون الذين كانوا يتألفون من قبائل متحالفة، وهؤلاء كانوا يسكنون الأراضي الأرمنية الأصلية أو التاريخية والتي كان تسمى نايزي^(١).

فالأرمن كانت لهم في العصور القديمة دولة وكان لها سيادتها واستقلالها وكانت تقع في شرق الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية.

وبعد استيلاء الأتراك السلاجقة^(٢) بعد واقعة ملاذ كرد سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م)^(٣)، على هذه المنطقة رحل قسم كبير منهم إلى غربي الأناضول^(٤) وأقاموا في جبال طوروس^(٥) وفي سهول كيليكية^(٦) ولعبت إماراتهم الصغيرة في تلك

(١) حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم، القاهرة، ١٩٩٦، من ص ٩ إلى ٢١.

(٢) الأتراك السلاجقة: وهم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم (الغز) أو (الأغوز) أصلها من سهوب تركستان في أواسط آسيا وتعود تسمية أفرادها بالسلاجقة إلى قائدهم الذي وحدهم سلجوق بن دقاق، تكونت لهم دولة حكمت في ظل السيادة الاسمية للخلفاء العباسيين وامتدت مناطق نفوذها من أفغانستان شرقاً إلى آسيا الصغرى غرباً ومن أرمينيا شمالاً إلى فلسطين جنوباً دامت من (١٠٣٧ إلى ١١١٧م) في بلاد الشام و(١١٩٤) في العراق و(١٣٠٠) في آسيا الصغرى. الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ٤ أجزاء، الجزء الرابع، ص ٥٨١.

(٣) ملاذ كرد: وقعت بين الجيش السلجوقي بقيادة السلطان ألب أرسلان وجيش الدولة الرومية بقيادة الأميرطور رومانوس سنة (٤٦٣هـ-١٠٧١م) وسببها استيلاء ألب أرسلان على جورجيا وبلاد الأرمن وانتهت بانتصار المسلمين. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٢٤ - ص ٨٤.

(٤) الأناضول: شبه جزيرة آسيوية تشكل القسم الأكبر من تركيا، معظمها أنجاد وجبال يحدها شمالاً البحر الأسود وغرباً بحر مرمرة وبحر إيجه، وجنوباً البحر المتوسط، يطلق عليها أيضاً اسم آسيا الصغرى. المنجد في الأعلام، ص ٧٢.

(٥) جبال طوروس: سلسلة جبال في جنوب تركيا الآسيوية بين قيليقية وكبليقية. المنجد في الأعلام، ص ٤٣٩.

(٦) كبليكية: منطقة في جنوبي غربي تركيا الآسيوية على ساحل المتوسط من أهم مدنها (أدنة "أضنة" وطرسوس وسيس) عرفت بأرمينيا الصغرى وكانت مملكة مستقلة منذ العهد الصليبي. المنجد في الأعلام ص ٤٣٩.

المناطق دوراً في الحروب الصليبية^(١) سواء الإمارات الشرقية أو الغربية، ولكن رغم ذلك لم تكن تشكل بتجمعاتهما الصغيرة والمتفرقة كياناً موحداً مستقلاً بذاته^(٢).

ومع دخول الأرمن تحت السيادة العثمانية سنة (١٤٥٣) دخل الأرمن ضمن نظام الملل والذي بُدئ بتنفيذه اعتباراً من عام (١٤٥٤م) وبذلك أصبحوا تابعين لبطيركية الروم الأرثوذكس^(٣) منذ ذلك العام، واستطاع الأرمن أن يصلوا إلى مراكز مرموقة وحساسة في الدولة العثمانية، وذلك بسبب ما امتازوا به من ثقافة وذكاء إضافة إلى إتقانهم لعدة لغات (فعلوا في السفارات الأجنبية وفي التجارة واحتكروا بعض الصناعات وخاصة الحربية، وصناعة الخمر ومهنتي الصياغة والصرافة، وبعض الوظائف الحكومية المتصلة بذلك وبالكتابة، حتى قيل إن الأرمن هم "أصحاب القلم" في هذه الدولة^(٤)).

ومن أشهر الشخصيات الأرمنية التي ظهرت في الدولة العثمانية (الصيدلي والطبيب: أمير دولت الأماسي في القرن الخامس عشر، والمعماري: سنان باشا ذائع الصيت في القرن السادس عشر، والمؤرخ والكااتب: أرميا شيلي قومرجيان في القرن السابع عشر، والمؤرخ والكااتب: مرادجي حسون ترجمان السفارة السويدية في القسطنطينية في القرن الثامن عشر، وأرتين أمير بزجيان مدير دار سك النقود من سنة ١٨٣٢م، والمعماري نقولاس باليان باني سراي دوطه (أي الحديثة المملوءة) بغجة سنة ١٨٥٣م، وداود قراييد باشا والي لبنان ووزير الأشغال الذي أشرف في سنة ١٨٧١م على مد خط الحديد بين الروملي وأوروبا العثمانية، وهاجوب قازاقيان باشا وزير المالية سنة

(١) الحروب الصليبية: تعرف بهذا الاسم، الحملات العسكرية التي قامت بها أوروبا المسيحية إلى الشرق الإسلامي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (١٠٩٦-١٢٩١م) وقد جرت هذه الحملات تحت سنار النوازع الدينية (إنقاذ بيت المقدس من المسلمين) ولكن في حقيقتها كانت دوافعها اقتصادية، وبلغت سبع حملات. الموسوعة العسكرية، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٠١.

(٢) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق ص ٣١٢.

(٣) بطريركية الروم الأرثوذكس: الروم الأرثوذكس هم أتباع الكنيسة الشرقية التي تستخدم اللاهوت والطقوس البيزنطية - و بطريركية الروم هي الموحدة في القسطنطينية وهي تترأس البطريركيات الثلاث الأخرى في (القدس والإسكندرية وأنطاكية. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) الحافظ، فؤاد حسن، مرجع سابق، ص ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨.

١٨٩١م، وفي مصر نوباريان باشا سنة (١٨٢٤م) مؤسس المحاكم المختلطة في مصر، والدكتور حنا ورتبت سنة (١٨٢٧-١٩٠٨) وهو من وراد تعليم الطب والاستشراق بالجامعة الأمريكية في بيروت، والصحفي والأديب المشهور أديب إسحق (سنة ١٨٥٦م/١٨٨٥م) وهو من تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومن أعلام النهضة العربية الحديثة وغيرهم كثير^(١).

ب - إرهاصات وأحداث الفتنة:

ومع دخول التغيرات الجديدة في الدولة العثمانية وقيام الثورة الفرنسية وما أحدثته من تطور فكري وظهور القوميات ومطالبة كل من البلغار والصرب بالاستقلال عن الدولة العثمانية، بدأ الأرمن أيضاً المطالبة بالاستقلال الذاتي ضمن الدولة العثمانية والقيام بالإصلاحات الداخلية في الأقاليم الأرمنية، فهم لم يحظوا بالدعم الذي حظي به البلغار والصرب من قبل روسيا، وذلك بسبب الخلاف المذهبي^(٢) وخوف روسيا من قيام دولة أرمنية على الأراضي الروسية.

ولذلك كانت روسية تسعى في أغلب الأحيان للعمل ضد مصالح الأرمن وبل وفي كثير من الأوقات قدمت المساعدة للعثمانيين من أجل القضاء على ثورة الأرمن في عهدها^(٣).

ولقد حقق الأرمن شيئاً من النجاح بعد مساعٍ كبيرة، وذلك في الحصول على بعض مطالبهم من خلال معاهدة صلح سان استيفانو (سابقة الذكر/ ٣ آذار ١٨٧٨)

(١) حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق، ص ١٩٠-١٩١-١٩٢.

(٢) الخلاف المذهبي بين الروس والأرمن: لقد تنكر رجال الدولة الروسية لأفعال الأرمن وسعوا لدى الباب العالي إلى استبدال بطريرك آخر بالبطريرك إزميرليان الذي كانت ترى روسية فيه مصدر هذه الحركات حيث كان يمارس التعليم الأرمني في القوقاز وروسيا تأتي إلا التعليم الروسي وحده. أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣١٨.

(٣) البرحاوي، محمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٦-١٦٧.

حيث نصت المادة (١٦) منها بأن تتعهد الدولة العثمانية بالقيام بالإصلاحات في الأقاليم الأرمنية وتأمين المسيحيين من تعدي الأكراد^(١) والشراكسة^(٢). فلقد كان الأرمن يتعرضون للاعتداءات المتكررة من قبل الأكراد تحت أنظار العثمانيين، ولكن رغم ذلك لم يطبق شيء مما ورد في هذا البند على أرض الواقع حيث استمرت الاعتداءات على المسيحيين في المناطق المذكورة، وبالنسبة للإصلاحات التي وعدت الدولة العثمانية بإجرائها في هذه المناطق فلم تقم بأي منها^(٣). وهذا ما دفع الأرمن إلى الاحتجاج والتمرد مرة ثانية، فقبل الأمر من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بمذابح متعددة ما زالت موضع جدل في كتب التاريخ.

ج - المذابح الأرمنية في العهد الحميدي:

فور انتهاء أحداث الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٨م) شرع السلطان عبد الحميد الثاني على الفور بالقيام بمذابح حقيقية في الولايات الأرمنية^(٤)، وذلك لمعاقبة الأرمن العثمانيين على إشتراك إخوانهم الأرمن الروس في الحملة الروسية على الأناضول فجرت مذابح في إقليمي بايزيد والشفراد... وقام السلطان عبد الحميد الثاني بتهجير القبائل الكردية من ولاية ديار بكر الأرمنية، إلى الولايات الأرمنية الأخرى وهي (أرضروم، دان، بدليس، خربوط، وسيواس) وذلك بغاية تقليل نسبة الأرمن وفي هذه

(١) الأكراد: يقدر عدد الأكراد في الوطن العربي بحوالي خمسة ملايين نسمة- أكثر من ثلاثة أرباعهم في العراق (مرتفعات كردستان) وشمال شرق سوريا (في الفرات الأعلى) الملاصق جغرافياً لمناطق وجودهم في كل من العراق وتركيا، والأكراد في غالبيتهم العظمى مسلمون وهم سكان هضبة كردستان أي أرض الأكراد. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) الشراكسة: وهي شعوب قطنت سابقاً شمال غربي الفقفاس والشاطئ الشرقي للبحر الأسود هاجر أغلبها إلى تركيا وسورية والأردن. المنجد في الأعلام ص ٢١١.

(٣) عريش، سمير، أرمينيا أرض وشعب، ومؤسسة دار الربحاي، ١٩٩١، ص ١١٨. ملور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص ٣٩٥-٣٩٦-٣٩٧.

(٤) الولايات الأرمنية: وهي سبع ولايات عثمانية: أرضروم، دان، ديار بكر الأرمنية، بدليس، خربوط، سراس. حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق، ص ٢١٨.

الولايات. وتزايدت المذابح بعد سنة ١٨٨٩م في الولايات الأرمنية وذلك بتزايد اعتداءات الأكراد المقيمين فيها على الأرمن القاطنين^(١) في هذه الولايات، وذلك من أجل الضغط عليهم والتخفيف من عددهم، وكانت هذه المذابح تتم بتحريض من الدولة العثمانية لتطبيق سياسة معينة للدولة في هذه الولايات، فالدولة العثمانية كانت حريصة على عدم حصول اتصال ما بين الأرمن الأتراك والأرمن الروس في تلك المناطق حتى لا يكونوا قوة موحدة في وجهها في تلك المناطق الحدودية الهامة مع روسيا.

أشهر هذه المذابح^(٢):

- ١- مذبحه/٢٠-٢١ حزيران ١٨٩٠م/ في أرضروم، وذلك بتحريض واليها سامي باشا، حيث هوجمت الكنيسة بحجة التفتيش عن السلاح.
- ٢- مذبحه صمصون (صمسون) /١٥ آب إلى أيلول ١٨٩٤م/ كان يحوي هذا القضاء (١١٠) قرى يسكنها قرابة ٢١ ألف من الجبلين حوالي ٤٠٪ منهم من الأرمن والباقي من الأكراد، كان سبب هذه المذبحة امتناع الأهالي عن تأدية الضرائب، فأرسلت قوات بالأمر من السلطان عبد الحميد الثاني بقيادة المشيرزكي باشا قائد الفيلق الرابع إلى هذا القضاء حيث دمرت ٢٤ قرية أرمنية وأحرقت وقتل الكثير وقيل إنه وصل العدد إلى حوالي ٣٥٠٠ قتيل.

(١) حافظ، فؤاد حسن، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٢) أورد فيما يلي رواية عن لسان العقيد المتقاعد: عدنان قيرطاي (شركسي) حول مذبحه ضد المسلمين من قبل الأرمن في تلك المرحلة فقال: إنه سمع مع الضابط (فخر الدين سي) (شركسي أيضاً) والذي كان ضابطاً في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى ما يلي: ذكر قصة حرت في مدينة جنوب شرقي تركية: أنه رأى في يوم صلاة الجمعة أنه قد تعرض أحد المساجد في تلك المدينة إلى حريق، حيث قامت مجموعة من الأرمن بإغلاق أبواب الجامع وكان سقفه من الفرميد - حيث بلغ عددهم كما قدر خمسة أشخاص - قاموا بإغلاق أبواب الجامع وصعد قسم منهم إلى السطح وكان معهم مواد حارقة (بنزين على ما يعتقد) وأشعلوا النيران في المسجد - ويقسم هذا الشخص وهو يكي: أنه رأى الدهن البشري يسيل من تحت الأبواب - وشبابيك المسجد كانت مصنوعة من الحديد المتداخل كما في شبابيك السليمانية فكان من الصعوبة بمكان أن يهرب أحد من هذه المحرقه - وكان يردد قائلاً بعد أن انتهى الرواية كيف لن يُهجر الأتراك الأرمن بعد كل ذلك. عن لسان الضابط المتقاعد: عدنان قيرطاي الخميس ٧/٧/٢٠٠٥ - الساعة ٥.٣٣، في مكتبة الأسد.

٣- مذبحه / ٣٠ أيلول ١٨٩٥م/ : وفيها خرج الأرمن بمظاهرة في العاصمة القسطنطينية للمطالبة بالإصلاحات ووقف المذابح ضد الأرمن، فردت الشرطة العثمانية بمذبحة استمرت على مدى يومين راح ضحيتها قرابة الألفين من الأرمن.

٤- مذبحه الرها^(١) / ٢٨-٢٩ كانون الأول ١٨٩٥م/ وبلغ عدد ضحاياها ثلاثة آلاف.

٥- مذبحه حي "خاص كوي" وهو حي أرمني في القسطنطينية العاصمة، واستمرت ثلاثة أيام / ٢٦-٢٧-٢٨ آب ١٨٩٦م/ وأسفرت عن سقوط سبعة آلاف قتيل أرمني.

لقد بلغت حصيلة هذه المذابح ما بين عامي / ١٨٩٤-١٨٩٦ / حوالي مائة وخمسين ألف قتيل من الأرمن العثمانيين، لقد هاجر مائة ألف أرمني عثماني من الدولة العثمانية إلى روسيا ودول البلقان، وأوروبا وأمريكا، وهبط عددهم إلى النصف في الولايات الأمريكية العثمانية، وكانت نهاية المذابح في العهد الحميدي (حيث أنها استمرت في عهد الاتحاديين أيضاً) ببلاغ أصدرته الحكومة العثمانية يوم ١١/ تشرين الثاني سنة ١٨٩٦م/ وذلك بتطبيق قانون الإصلاح في الولايات الأرمنية، وتطبيق الدستور فيها، والعفو عن بعض الأرمن، ولكن بقيت هذه وعوداً وحبوراً على ورق، بل زادت قبضة العثمانيين على الأرمن وخاصة بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني وتسلم الاتحاديين للحكم في سنة ١٩٠٩^(٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا قام السلطان عبد الحميد بارتكاب هذه المذابح؟

تعددت الإجابات بهذا الشأن، وليس لدينا ما يثبت صحة أي إدعاء أو رواية.

(١) الرها: أو أورفا مدينة بين النهرين في تركيا اشتهرت بمدارسها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين (٣٦٣م) بعد فتح الفرس لهذه المدينة، فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع. فتحها العرب سنة (٦٣٩م). بقيت مسيحية في عهد الأتراك. المنجد في الأعلام ص ٨٩.

(٢) عربش، سمير، أرمنيا أرض وشعب، مرجع سابق، ص ١٢٤ إلى ١٣٢. حافظ، حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق ص ٢١٠-٢١١-٢١٢. منور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠. وللنوسج: مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، مرجع سابق، من ص ٢٦٩ إلى ٢٨٧.

ليس صحيحاً ما يقال إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يكن كراهية للأرمن، فألمه أرمنية الأصل، ومن المستبعد أن تبلغ به الكراهية درجة تدفعه إلى سفك دماء أناس أبرياء، وإذا كانت الروايات الأرمنية تعزي ذلك لأسباب خاصة، فإن احتمال الأخذ بذلك مشكوك به، ولا يمكن اعتماده، أما الروايات التركية فتفيد أن الأرمن تزايد نفوذهم في الدولة العثمانية، هذا النفوذ وتزامناً مع تزايد الوعي القومي لدى الأرمن دفعهم للمطالبة بدولة خاصة بهم، ولهذا السبب لجأ السلطان عبد الحميد إلى ضربهم بقسوة بعدما فشل في إقناعهم بالتزام الهدوء، والامتناع عن إثارة الاضطرابات والقلق.

إن هذا الاحتمال هو الأقرب للصحة، أما ما عدا ذلك من ادعاءات فتظل ادعاءات، وهل يعقل أن يعتمد السلطان عبد الحميد الثاني إلى ارتكاب مجازر بحق الأرمن بهدف الشبه الخلقي الذي يدل على أنه يرتبط مع الأرمن بصلة قرابة. أما بشأن أنه ليس ابن السلطان عبد المجيد فهذا أمر مشكوك بصحته، فألمه الأرمنية كانت راقصة، وقد ماتت بمرض السل.^(١)

د- ثورة الموحدين^(٢):

هم فئة من سكان بلاد الشام يقطنون القرى الجبلية الواقعة في السفح الجنوبي للحرمون، كمجدل شمس وبقعاتا ومسعدة وعين قنية وهم من جملة الموحدين (الدروز) في وادي التيم القريب منهم، وأكثر ما يعتنون بزراعة الكرمة. والموحدون (الدروز) فرقة من الفرق الإسلامية الباطنية المشتقة من الإسماعيلية الفاطمية، نشأ مذهبهم في القرن الخامس الهجري، على أثر قيام الحاكم

(١) Ali Kemal Maran, *Padisah Analare istanbul* ٢٠٠, s:٣٥٠-٣٦٠

(٢) الموحدون: «الدروز»: فرقة أسسها الداعيان درزي وحمزة بن علي بن أحمد في أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (انتشرت في سورية وحلب وبانياس) استوطن الدروز في لبنان منذ أواخر القرن (١٢) (وادي النجم) وهاجر قسم منهم إلى سورية في أواخر القرن (١٧) فقطعوا اللحاة ومرتفعات حوران التي دعيت بجبل الدروز. المتحد في الأعلام، ص ٢٨٥.

بأمر^(١) الله سادس الخلفاء الفاطميين وادعائه بالألوهية وإرساله محمد بن اسماعيل الدرزي^(٢) سنة (٤٠٤هـ) إلى وادي التيم لنشر دعوته فتبعه سكان هذا الوادي منذ ذلك اليوم، وهم يعدون أن دينهم الأصلي هو الإسلام وكتابهم القرآن مع وجود معتقدات خاصة بهم يختلفون بها عن بقية المسلمين اختلافاً بيناً^(٣).

والموحدون عامة مشهورون بالشجاعة والإقدام وشدة المراس وإقراء الضيف والغيرة والحفاظ على العرض ولو كان لعدوهم، ومراعاة حق الجوار لمن يسلك معهم بالاستقامة. هذا والموحدون يستقرون غالباً في قرى مرتفعة دفاعية الهدف على منحدرات الجبال كما تراه دائراً ما دار جبل الشيخ في أقضية حاصبيا وراشيا وقطنا والقنيطرة وفي جبل لبنان (قضايتي الشوف والمتن) والجبل الأعلى غربي حلب، وجبل حوران محافظة السويداء وفي بعض قرى الجليل (حول صفد) وجبل الكرمل (قرب حيفا)^(٤). إن الأحداث التي جرت ما قبل فترة السلطان عبد الحميد الثاني، تدل على أن الموحدين في جبل حوران حاولوا منذ عهد إبراهيم باشا^(٥) أن يتخلصوا من السيادة العثمانية، ويتمتعوا بامتيازات خاصة بهم، وذلك لأن طبيعة هذه الطائفة يصعب عليها أن تحمل حكماً غير حكم مشايخ العقل^(٦) عندهم، فهؤلاء يمثلون لدى الموحدين أعلى سلطة دينية وسياسية وإليها يؤدون الطاعة والأمر.

(١) الحاكم بأمر الله: (٩٨٥م-١٠٢١م) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر ولد بالقاهرة وباشر الملك وعمره (١١) سنة مال إلى آراء الإسماعيلية والتنجيم وفي سيرته متناقضات عجيبة قيل إن أخته ست الملك دست له رجلين قتلاه وأخفياه. غريال، محمد شفيق، الموسوعة العربية المسيرة، ج ١، ص ٦٨٦.

(٢) محمد بن إسماعيل الدرزي: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٤١١هـ/١٠١٩م)، الداعي الأول للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لجأ إلى لبنان وسورية ونشر فيهما مذهبه. المنجد في الأعلام ص ٢٨٥.

(٣) زكريا، وصفي، الريف السوري، دار البيان، دمشق، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، جزآن، ج ٢، ص ٥١١-٥١٢-٥١٣.

(٤) زكريا، وصفي، مرجع سابق، ص ٥١٣.

(٥) إبراهيم باشا: (١٧٨٩م-١٨٤٨م) بن محمد علي عزيز مصر، ولد في قولة (الروملي)، وتوفي في القاهرة رجل سياسة وحرب ساهمت انتصاراته في نجاح والده السياسي، قهر المماليك وانتصر على الوهابيين في الجزيرة العربية وعلى اليونان وتغلب على العثمانيين في سورية، انسحب من سورية تحت الضغط الأوربي. المنجد في الأعلام ص ٦-٧.

(٦) زكريا، وصفي، مرجع سابق، ص ٥١٣-٥١٤.

وكلما حاولت الدولة العثمانية أن تطبق عليهم قانوناً ما ، كانوا ينتفضون ويثورون ، وكانت الأمور لا تنتهي إلا بحدوث معارك تنتهي بأن يرضى الموحدون بدفع غرامة مالية يؤدونها إلى الدولة.

وفي المقابل كان للدولة العثمانية دور في إثارة هذه الفتن وذلك بأنها اتخذتهم آلة لحربها ضد الطوائف الأخرى وخاصة في لبنان وادي التيم وهوران ، كاستخدامهم للانتقام من عدوهم إبراهيم باشا حيث كانوا آلتها لإحداث المذابح في تلك المناطق في أحداث فتنة الستين^(١) المشهورة^(٢) ، ولقد كان استقرار الموحدين في جبل حوران نتيجة للهجرة التي تمت في أعقاب أحداث فتنة الستين بين الموارنة والموحدين في جبل لبنان ، حيث دعمت بريطانيا الموحدين ودعمت فرنسا الموارنة وعملوا على تأجيج النار بين الطرفين وزادوا في أوارها ، وقد سبق وذكرنا قدوم المجموعات الأولى منهم إلى وادي التيم والجبل الأعلى وصفد وعكا وغوطة دمشق ولكن التوافد الأكبر كان بعد حوادث الشام ، حيث استوطن الموحدون في هذه الأماكن واستقروا فيها مما زاد في قوة شوكتهم ، كما ذكرنا سابقاً ألا وهو دعم الدولة العثمانية واستخدامهم كيد تضرب بها العصاة في المنطقة ، وذلك لما عرف عنهم من قوة وشجاعة في القتال وشدة المراس. وأشهر وقائعهم في العهد الحميدي ما حدث سنة (١٢٩٦هـ-١٨٧٨م) وذلك في أثناء ولاية المصلح مدحت باشا على دمشق وخلاصة هذه الحادثة أن مجموعة من سكان جبال الموحدين هاجموا قرية (بصر الحرير)^(٣) وقتلوا بعض القرويين فحاولت الحكومة القبض على الجانين وطلبتهم من رؤسائهم ، ولكن هؤلاء رفضوا تسليم الجناة ، فاضطر مدحت باشا إلى إرسال قوة من الشام لتأديب العصاة ، واستعد الموحدون في الجبل لهذا الأمر ، واشتبك الطرفان في معركة قتل فيها (٦٠٠) من أفراد الموحدين فاستسلم أهالي الجبل وحضر رؤسائهم إلى مركز الولاية وأحضروا معهم أربعة أشخاص من الجناة وسلموهم للحكومة ، وهكذا

(١) فتنة الستين: مر ذكرها سابقاً ص ١٤.

(٢) كرد علي، محمد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ٦ أجزاء، ج٣، ص ٧٣ ص ١١٤.

(٣) بصر الحرير: (قرية): قرية في محافظة درعا (منطقة أزرق) تبعد عن أزرق ٩ كم سكانها حوالي (٢٥٠٣) نسمة.

قدامة، أحمد، معالج وأعلام في بلاد العرب، القسم الأول، القطر السوري، ص ١٣٤.

انتهت هذه الفتنة برضوخ الموحيدين لإرادة الحكومة في الولاية، وكان الذي قوى شوكة الموحيدين في هذه الواقعة هو دعم الإنكليز لهم، فلقد كتب مدحت باشا في مذكراته حول هذه الواقعة مايلي: "كانت فرنسا تحاول دائماً كسر نفوذ إنكلترا فكانت تحمي جماعة الموارنة، وكانت إنكلترا تتحيز للدروز، فقام قنصل إنكلترا بوظيفة الدفاع عن الدروز وكتب إلى قصر المابين^(١) والباب العالي، فكانت الأوامر التلغرافية ترد في كل يوم قاضية لحسم هذه المسألة، وكان قنصل الدولة الإنكليزية يلح علي في كل يوم، فشمخ الدروز إذ رأوا هذه الحركة، فأمرت العساكر باستعمال السلاح فشنت الدروز في معركة قتل فيها ٦٠٠ من أفرادهم^(٢)." حدثت فتنة أخرى في عهد الوالي أحمد حمدي باشا الصدر الأسبق والي الشام وذلك في عهد ولايته الثانية سنة (١٢٩٧هـ-١٨٧٩م) حيث تفاقم الخلاف بين الموحيدين وأهالي قرية أم ولد من حوران^(٣) (فقد تعود الموحدون منذ نزولهم في مناطق حوران الاعتداء على القرى والمناطق المجاورة لهم وإثارة الفتن والمشاكل)^(٤)، ونتج عن هذا الخلاف حدوث مواجهات أفضت إلى مذبحه بين الفريقين، عالج أحمد حمدي باشا، هذه المسألة بالحكمة والروية فعمد إلى إجراء مفاوضات لإيجاد حل سلمي بين الطرفين، فأرسل هيئة من أولي الوجاهة والعلم لحل القضية بين الطرفين، وفعلاً نجح هذا الوالي في إخماد نار الفتنة بين الطرفين، وأقر الصلح بينهم وعادت المياه إلى مجاريها بينهم. وكانت العادة لإخماد أي فتنة في هذه المناطق هي إرسال قوة عسكرية تقوم بتأديب الطرفين وإسكاتهما، ولكن كان لهذا الوالي وجهة نظر مختلفة عن الذين سبقوه من الولاة في المنطقة^(٥). ازداد تمرد أهل الجبل وثورتهم في

(١) المابين والباب العالي: وهي المفصود بها مركز السلطنة في الآستانة.

(٢) مذكرات مدحت باشا، ترجمة: يوسف كمال بك حنّانة، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢-٤٣. كرد علي، محمد،

حفظ الشام، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢-١٠٣. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار النفهم،

موسكو، ١٩٧١، ترجمة د. عفيفة البستاني، ص ٣٩١.

(٣) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٤) كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج ٣، ص ١١٢.

(٥) الحصني، محمد أديب، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

المنطقة فقاموا سنة (١٣٠٤هـ-١٨٨٦م) بالاستيلاء على قرى اللجاة للتحصن بها عند الحاجة، فاحتشد نحو خمسمئة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الأطرش ووصلوا إلى المسلمة، وهاجموا قلعتها فردوا عنها من قبل الحامية العثمانية، ولكن هذه الثورة لم تنتهِ حتى وافقت الدولة العثمانية على التنازل عن هذه المناطق والاعتراف بالأطرش أميراً للموحدين^(١).

وحدثت ثورة أخرى في سنة (١٢١٤هـ-١٨٩٦م) وذلك إثر محاولة الدولة العثمانية تطبيق التجنيد الإجباري بين الموحدين^(٢). وكانت قد سبقتها ثورة أخرى في عهد الوالي عثمان نوري^(٣) باشا (١٣١١هـ-١٨٩٣م) على دمشق حدثت بسبب سوء تصرف مأموري الحكومة في المنطقة وسوء إدارتهم فيها واضطرت الدولة إلى سوق جيوش عظيمة لتأديبهم بقيادة الوالي عثمان نوري باشا الذي نجح في القضاء على هذه الثورة وإخمادها في مهدها^(٤). وفي سنة (١٣١٧هـ-١٨٩٩م) اندلعت الثورة مرة أخرى عندما شرعت السلطات العثمانية بتشديد ثكنات عسكرية في السويداء^(٥) المركز الإداري لجبل الموحدين فثار الأهالي في المنطقة على الجنود العثمانيين وحدثت بين الطرفين معركة سقط فيها ٥٠٠ جندي عثماني، وبالرغم من قمع هذه الثورات وإخمادها غير أنها كانت تتجدد بشكل دائم مع حدوث أي مساس بسيادة الجبل في منطقة الموحدين، وكان آخرها سنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م) وذلك بسبب قلاقل أثارها الموحدون مع القبائل والقرى المجاورة لهم^(٦). من خلال استعراض أبرز ثورتين أو حركتين في

(١) كرد علي، محمد، خطط الشام، مرجع سابق، ج٣، ص ١٠٨. لونسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مرجع سابق، ص ٣٩١.

(٢) لونسكي، مرجع سابق، ص ٣٩١. كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج٣، ص ١٠٨.

(٣) عثمان نوري باشا: مر تعريفه سابقاً (قاهر الصرب) ص ٢٤.

(٤) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواربغ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٥. أبو النصر، عمر، سورية ولبنان في القرن التاسع عشر، ط٢، بيروت، ص ٨٠-٨٢-٨٣.

(٥) السويداء: بلدة سورية قاعدة محافظة السويداء أو جبل الدروز - ولها قضاعان صلخد وشهباء. المنجد في الأعلام ص ٣٧٣.

(٦) كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج٣، ص ١١٠-١١١-١١٢. لونسكي، مرجع سابق، ص ٣٩١. أبو النصر، عمر، مرجع سابق، ص ٨٣.

الدولة العثمانية في العصر الحميدي ثورة الأرمن وثورة الموحيدين في حوران: نجد أنه كان للدولة العثمانية دور في إشعال هذه المشاكل وإثارتها، وذلك بمحاولتها ضرب الأطراف المتصارعة إن كانت طائفية أو مذهبية أو سياسية فيما بينهما من أجل أن تحقق في النهاية هدفها في السيطرة على الجميع من منطلق "فرق تسد"، ولكنه أيضاً كان للتدخل الخارجي دور كبير في إثارة هذه الثورات وإشعالها وذلك من خلال دعم الدول الأجنبية للفئات الطائفية والمذهبية في المنطقة وتحريضها على بعضها على البعض لكي تستطيع التدخل في شؤون الدولة العثمانية وبالتالي الحصول على امتيازات منها، فكما أيد الروس الأرمن أيد الفرنسيون الموارنة والإنكليز الموحيدين، ولم تكن الضحية الوحيدة في هذه المشاكل والفتن إلا أبناء هذه الطوائف والمذاهب الذين حصدتهم المعارك فيما بينهم أو مع الدولة العثمانية التي قمعّت هذه الثورات بقوة السلاح والبطش. ولكن فيما بعد عادت بالوبال والدمار على الدولة حيث زادت من فرققتها ومن تجزئتها ونفور شعبها منها، وبالتالي أدت إلى انهيار هذا الكيان العظيم في النهاية لأن السوس كان قد نخر في الداخل حتى العظم، فلم تستطع الصمود حتى النهاية، فكان السقوط النهاية الحتمية لكيان هش متداع من الداخل.

ثامناً - الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة:

كان للعوامل الداخلية والخارجية على حد سواء الدور الكبير في نشوء الوعي القومي في منطقة المشرق العربي، فالثورات الداخلية والمؤثرات الخارجية كالحملة الفرنسية على مصر ونظام الامتيازات والإرساليات والبعثات التبشيرية، كل هذه العوامل عملت مجتمعة على تغذية الروح القومية في المنطقة، وبالتالي إلى بلورة هذه الروح عبر ما سميت بالأحزاب السياسية أو الجمعيات والصحف، وظهور شخصيات

فكرية سياسية نضالية في تلك المرحلة قادت جماهير الأمة العربية في حركة نضالها التحررية مع بدايات القرن العشرين^(١).

أ- جمعية الاتحاد والترقي:

نتيجة للظروف السياسية السابقة الذكر التي مرت بالبلاد، ونتيجة للسياسة الاستبدادية المنفردة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وعملية تعليق الدستور وتأجيل مجلس المبعوثان تشكلت جمعية سرية في استانبول نواتها كانت جمعية تركية الفتاة وأطلقت على نفسها اسم "حزب الاتحاد والترقي" أو "جمعية الاتحاد والترقي"، وكانت الانطلاقة الفعلية لها في سنة (١٨٨٩م) على يد مجموعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في استانبول^(٢).

أنشئت فروع لها في جميع أنحاء البلاد العثمانية (مصر، بلاد الشام، وحتى أوربة) وتجسدت دعوتها بإنشاء صحف متعددة لنشر أفكارها في كل من مصر وأوربة وسلافيك^(٣) تجاوز عددها الأربعين جريدة تحت أسماء مختلفة، ولكن لم يصمد منها إلا ثلاث فقط^(٤). ولقد كان انتشار هذه الجمعية كبيراً وسريعاً حيث انطلقت من المدرسة الطبية العسكرية إلى المدارس الحكومية العالية الأخرى الموجودة في الآستانة فشملت الكلية العسكرية، والمدرسة البيطرية، وكلية الإدارة الملكية، والكلية البحرية، ومدرسة المدفعية والهندسة^(٥).

(١) عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (١٩٤٥-١٩٨٥م)، ط٥، من ص ٤٠٣ إلى (٤٣٣).

(٢) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٣) سلافيك: مرفأ في شمال اليونان (مقدونيا) كان قديماً يسمى تسالونيكي وإليه ينسب مصطفى كمال أتاتورك من تسالونيكي مؤسس تركيا الحديثة. المنجد في الأعلام، ص ٣٠٩.

(٤) العظيمة، عبد العزيز، مرآة الشام، مرجع سابق - ص ٣٦٢ - ٣٦٣.

(٥) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

أهدافها وبرنامجهما السياسي:

كان من أهم أهدافها القضاء على الحكم الاستبدادي وتسليط السلاطين العثمانيين، والعمل على إقامة الحكم في الدولة العثمانية على أساس دستوري يضمن للأمة حريتها وحقوقها ويفتح أمامها الآفاق ويزيل عنها الجهل والتخلف عن ركب الحضارة الأوروبية. وقد رأينا كيف نجح شباب هذه الجمعية والمصلحون في عهدهم في الضغط على السلطة الحميدية من أجل إعلان دستور للبلاد كما أسلفنا سنة (١٨٧٦م)، ولكن مع إلغاء الدستور فيما بعد وحل مجلس النواب من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بسبب ظروف الحرب الروسية التركية خابت آمال هؤلاء، ولكنهم لم يقنطوا من تحقيق أهدافهم في النهاية مهما كانت المصاعب والتحديات، فأصبحت أبرز أهدافهم في هذه الفترة هي الإطاحة بالحكم الحميدي والعودة بالبلاد إلى الحياة الدستورية من جديد، وفعلاً استطاعت في ٢٤/ تموز ١٩٠٨م/ ثورة عسكرية نظمها هذه الجمعية أن تجبر السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور وإعادة الحياة النيابية إلى البلاد من جديد^(١).

وكان بعض شباب العرب ومستيريهم مندمجين في هذه الدعوة ومنهم من كان منتسباً إلى تلك الجمعية على اعتبار أنها جمعية سياسية عثمانية، واشترك هؤلاء بالحركة الدستورية، وساهم النواب العرب في إنشاء منظمات حكومية ونيابية في البلاد مع رجال الدولة العثمانيين المستيرين. لقد ذاق هؤلاء طعم الخيبة، كما حصل مع مجموعة شباب تركيا الجديدة إثر تعليق الدستور من قبل السلطان عبد الحميد الثاني وإيقاف أعمال المجلس النيابي، إلا أنهم ما لبثوا أن استبشروا خيراً بعد إعلان الدستور للمرة الثانية (١٩٠٨م) وتأملوا خيراً من الدولة العثمانية والاتحاديين. ولكنه سرعان ما خابت آمالهم للمرة الثانية بسبب السياسة العنصرية

(١) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، ط٢، دمشق ١٩٩٣، ص ٥٣٣-٥٣٤. دروزة، محمد عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، سنة أجزاء، ج١، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٤٩، ص ٢٠-٢١. فنال هند، وسكري، رفيق، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ص ١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠.

التي اتبعها الاتحاديون في الدولة، وفرضهم للغة التركية، وتبنيهم للطورانية^(١) التركية وهي التي تؤكد الأصل الطوراني للأتراك، وتنص على أن السبيل الوحيد لإحياء العرق التركي هو الاتحاد مع جميع طورانيي الأصل مع العلم أن أكثرهم يخضع للحكم الروسي، والغاية الأساسية هي مجابهة الجامعة السلافية وخطط روسيا في دعمها وكذلك الحركة القومية العربية التي بدأت بالنهوض في البلاد العربية. انضم لهذه الجمعية كما أسلفنا بعض الأحرار العرب باعتبارهم مواطنين عثمانيين لا قوميين عرب ودخلها أيضاً أعضاء من قوميات أخرى ويهود ومسيحيين^(٢). "من ممارسات الاتحاديين التي أكدت على العنصرية التركية ومحاربة العرب" إنشاؤهم فروع وأندية لحزبهم في مختلف المدن العربية والشامية والعراقية، حيث جعلوا قيادتها في أيدي موظفين أو ضباط من الترك المتحمسين لغايتهم وأهدافهم العنصرية، وأخذوا يدخلون فيها من رأوا في دخوله فائدة من العرب موظفين وغير موظفين وشباباً وغير شباب لتكوين لهم أداة تأييد وتعضيد وتهدئة وتمويه، وقوى انتخابية لانتخاب من يرشحونه للمجلس النيابي ممن يضمنون مسايرتهم وولاءهم وقلة خطرهم، حتى لقد بلغ استهتارهم بالعرب إلى حد ترشيح نواب ترك في بعض الأنحاء العربية وإلى التدخل عنوة وعلناً في الانتخابات لضمان انتخاب من يرشحونه من قبلهم^(٣).

ولقد تأسس فرع دمشق لحزب الاتحاد والترقي في سنة (١٩٠٦م) أي في الوقت نفسه الذي تشكل في سالونيك، ولقد كان لهذا الفرع الدور الكبير في الضغط على الوالي في دمشق شكري باشا (وهو أحد وزراء الدولة العثمانية) بعد الانقلاب

(١) الطورانية: أشهر دعايتها ضابوك ألب وأحمد غاني وبوسف آقشورا اللذان قدا من روسية وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد، وهؤلاء يزعمون بأن الترك هم أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل ويجب أن يعودوا واحداً ولم يقتصروا فيها على الترك في سيبيريا وتركستان الروس وتركستان الصين وإلى البحر والفوقا والأتناضول وهم يقولون أنهم ترك أولاً ثم مسلمون ثانياً. أرسلان، شكيب، حاضر العالم الإسلامي، ثلاث مجلدات، المجلد الأول، القاهرة، (١٩٣٣/٥١٣٥٢م)، ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، مرجع سابق، ص ٥٣٤-٥٣٥.

(٣) دروزة، عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، مرجع سابق، ج ١، ص ٢١.

(في تموز ١٩٠٨م) للقيام بطرد عدد من كبار الأعيان الدينيين العلمانيين ومن الذين يعملون في إدارة الولاية ممن كانوا موالين للسلطان عبد الحميد الثاني، ومن بينهم رئيس المجلس الإداري للولاية محمد فوزي باشا العظم^(١) ونقيب الأشراف والمفتي الحنفي وأحد القضاة في المحكمة الشرعية وقواد كثيرون من الألوية. كما فقدت عائلات أخرى كآل البكري روابطها الهامة مع الحكومة المركزية، عندما طردت الجمعية أمين سر السلطان عبد الحميد الثاني الدمشقي (عزت باشا العابد)^(٢). ولكن كان لهذه الجمعية وما مارسته في النهاية من تمييز ضد العرب دور في إيقاظ الوعي القومي لدى العرب وخاصة لدى الطلاب العسكريين الدارسين في الآستانة، هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد النواة الحقيقية للحركة العربية القومية التي قادت البلاد للتحرر.

ب- جمعية الإخاء العربي العثماني:

وهي أول جمعية عربية، أعلن عن تأسيسها في ٢٠ أيلول ١٩٠٨م/ قامت بعد إعلان الدستور في /تموز ١٩٠٨م/ وكانت كردة فعل وطنية للتأكيد على ضرورة الوحدة العربية العثمانية.

وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط الحماس الشديد من الجالية العربية في القسطنطينية وحضر الافتتاح أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي، واسمها يدل على مقصدها فقد كان العرب يرغبون في معونة الأتراك، فألفوا هذه الجمعية رغبة في توحيد العمل مع جمعية الاتحاد والترقي لصيانة الدستور ورفع مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الدولة المنهوكة، ومن ثم إعلاء شأن العرب

(١) محمد فوزي باشا العظم: (١٢٩٧-١٣٥٣هـ-١٨٨٠-١٩١٩م) فاضل دمشقي المولد والوفاء، كان بحسن التركة والفرنسية، عين مترجماً في ديوان الأمور الخارجية، ثم منسباً في ديوان مجلس الشورى. وهو والد السياسي السوري خالد العظم. القزويني، محمد عبد اللطيف صالح، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) خوري، فيليب، أعيان المدن والقومية العربية، سياسة دمشق، (١٨٦٠-١٩٢٠م)، بيروت، ١٩٩٣ ط١، ص ٩٥-٩٦.

الذين يكونون الجزء الغالب في الإمبراطورية، وكان من حق كل شخص منتسب إلى العرب موطناً ومولداً الاشتراك في هذه الجمعية على شرط أن يكون متصفاً بالصفات الحسنة^(١).

أهدافها:

المحافظة على الدستور وتوحيد العناصر والملل التي تظللها الراية العثمانية بغض النظر عن الفروق الدينية والجنسية تحت راية السلطان العثماني، وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقية مع الأجناس الأخرى في الدولة، ونشر التعليم باللغة العربية، وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتباعها، ونشر المعرفة بشكل عام في الدولة عن طريق تأسيس المدارس وإصدار الجرائد وبناء المعامل وتوطين البدو، والتفاهم مع الاتحاديين الذي أخذوا يسيئون إلى العرب جهراً وعلانية، وقد أسهم الطلاب العرب في الآستانة بتفعيل دور الجمعية وحملوا على الاتحاديين حملة موفقة^(٢).

من أبرز شخصياتها في استانبول: عارف المارديني، صادق المؤيد^(٣)، شفيق المؤيد^(٤)، شكري الأيوبي^(٥)، وقد لقيت هذه الجمعية تأييداً من الطلاب العرب في

(١) صالح، نجيب، تاريخ العرب السياسي (١٨٥٦-١٩٥٦)، دار اقرأ، بيروت، (١٤٠٦-١٩٨٥م)، ص ١٣١. أحمد، عزت عبد الكريم، ومحمد، بدیع شریف، وزكي، المحاسني، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت ص ٨٧. دروزة، محمد عزت، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥.

(٢) صالح، نجيب، تاريخ العرب السياسي، مرجع سابق ص ١٣١. انطونيوس، جورج، بظلة العرب، ص ١٧٦-١٧٧. دروزة، محمد عزت، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٥. فنال، هند، تاريخ المجتمع العربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٣) صادق المؤيد: (١٨٣٢٩-١٩١١م) العظم قائد عسكري في الجيش العثماني مولده ومنشؤه في دمشق - انتدب للقيام بعدة مهمات من قبل السلطان عبد الحميد الثاني منها في بلغاريا وإبصال لأسلاك الرقبة إلى الحجاز توفي في دمشق. الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ١٨٥.

(٤) شفيق المؤيد: (١٢٧٣-١٨٣٣٤-١٩١٦م) ابن أحمد المؤيد العظم، من طلائع النهضة السياسية في سورية، ولد في دمشق، تعلم في بيروت، سافر إلى الآستانة، انتخب نائباً لدمشق، هم بتشكيل جمعية اتحاد الإغناء العربي، المعادية للاتحاديين، مات شهيداً. الزركلي، ج ٣، ص ١٦٨-١٦٩.

استانبول بدافع من شعورهم القومي والوطني حيث ساءهم تحامل الاتحاديين خاصة والترك عامة على العرب. ولكن هذه الجمعية لم تعيش غير سنة واحدة، إذ حُلّت بعد الانقلاب المسلح الذي حدث في استانبول في (٣١ آذار ١٩٠٩م) والذي أدى إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني، فما إن استلم الاتحاديون زمام الأمور في الدولة حتى أغلقوا جمعية الإخاء العربي العثماني لما أنسوه فيها من اتجاهات قومية عربية تشكل خطورة على الكيان التركي^(١).

ج- جمعية بيروت السرية:

وتعد أول جهد عربي قومي منظم، تشكلت سنة (١٨٧٥م) من تجمع خمسة من الشباب السوريين الذين درسوا في الكلية البروتستنتية السورية في بيروت، وهي جمعية سياسية سرية استطاعت أن تنظم اثنين وعشرين عضواً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، مركزها الأساسي في بيروت كما أنشئت فروع لها في دمشق وطرابلس وصيدا^(٢)، وقد مارست نشاطها في لصق المنشورات التي تندد بمساوئ الأتراك على الجدران، وأعدت برنامجاً للقضاء على هذا الحكم وعزمت على تنفيذه ولو بحد السيف.

أهدافها:

تضمن منشور الجمعية الصادر في (٣١ كانون الأول ١٨٨٠م) أول برنامج سياسي عربي مدون، إذ طالب بمنح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد وإلغاء الرقابة والقيود الأخرى التي تحول دون حرية

(١) شكري الأبوي: (١٢٦٧-١٣٤٠هـ-١٨٥١-١٩٢٢م) من رجال الوطنية العسكرية في دمشق مولده ووفاته فيها، تخرج من الكلية الحربية في استانبول، عين حاكماً على حلب حتى وفاته. الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) قتال، هند، مرجع سابق ص ١٧١-١٧٢. رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، مرجع سابق، ص ٥٣٥. صالح، نجيب، مرجع سابق ص ١٣١. دروزة، محمد عزة، مرجع سابق، ج ١، ص ٢٥.

(٣) أنطونيوس، جورج، البقطة العربية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

الرأي وانتشار العلم، وعدم استخدام الوحدات العسكرية المجنّدة من أهل سورية ولبنان إلا ضمن حدود بلادهم.

ويظهر بوضوح أثر فكر اليازجي^(١) والبستاني^(٢)، الأول في سعيه لإعلاء شأن اللغة العربية والثاني في حملته على الجهل، ولكن الجمعية فشلت في تحقيق أهدافها السياسية وانتهت فعلياً (١٨٨٢-١٨٨٣م)، وذلك بسبب ضعف الوعي العام لأهمية القومية العربية وضرورتها، فذهبت شعارات الجمعية وأهدافها أدراج الرياح، ولكن برنامج هذه الجمعية كان فيما بعد هو النموذج لما أتى بعده من برامج قومية للأحزاب العربية التي نشأت فيما بعد، وكان بيانها أول بيان معروف يتضمن أهدافاً سياسية وقومية معينة بشأن القضية العربية وحقوق الشعب العربي، مستقلة عن الكيان العثماني^(٣).

كلمة أخيرة في هذا الباب: إن ازدياد الوعي القومي لدى الشعوب العربية في تلك المرحلة كان ضرورة حتمية لإنجاح عمل هذه الجمعيات السالفة الذكر، ولفهم أفكار وطموحات الكثير من المفكرين العرب الذين ظهروا في تلك المرحلة. ولكن هذا الأمر لم يكن قد تحقق بعد في المنطقة، وذلك بسبب سيطرة فكرة الوحدة المصيرية ما بين الدولة العثمانية باعتبارها إطاراً يحوي الشعوب الإسلامية كلها تحت جناحيه وما بين الشعوب العربية التي تدين بأغلبها بهذه الرابطة الدينية،

(١) اليازجي: الشيخ (إبراهيم اليازجي) (١٨٤٧-١٩٠٦م) ولد في بيروت، من أئمة النهضة الأدبية واللغوية، درس العربية عن أبيه الشيخ ناصيف، أتم بالعربية والسريانية وعلوم القرآن، أسس مجلة الضياء.

المنجد في الأعلام، ص ٧٤٣.

(٢) البستاني: (بطرس) (١٨١٩-١٨٨٣م) من أعظم أركان النهضة، ولد في الدببة (لبنان)، تعلم في مدرسة عين ورقة، أسهم في ترجمة التوراة إلى العربية، أنشأ المدرسة الوطنية في بيروت ١٩٦٣م، وكان أول من نادى بتعليم المرأة، من آثاره: قاموس محيط الخبط ودائرة المعارف، عرف بالمعلم.

المنجد في الأعلام، ص ١٣١.

(٣) عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، مرجع سابق، ص ٣٢٤-٣٢٥.

ولكن ما أن تبلورت هذه الفكرة وتطورت حتى أثمرت ثورة عارمة في المنطقة قادها الشريف حسين^(١) في بدايات القرن العشرين. فضلاً عن ذلك كله فإن للعصر ظروفه وللأمة ظروفها، هذه الظروف وتلك المستجدات دفعت الأتراك الطورانيين إلى بلورة قوميتهم، ولم يكن الأتراك الجدد أكثر تطلعاً من العرب الذين تطلعوا إلى بلورة قوميتهم، ومن الخطأ بشيء تجاهل مستجدات العصر، ولن تبالغ أن العرب لم يكونوا يقصدون بحركتهم الانفصال عن الأتراك، لولا تشدد الأتراك الجدد ومحاولتهم إعادة الهيمنة على شعوب تمتلك تراثاً أصيلاً ولديها نسيج قومي متماسك، عجزت الشعوب الغربية عن تقطيعه أو تمزيقه.

(١) الشريف حسين: (١٢٧٠-١٣٥٠هـ-١٨٥٤-١٩٣١م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي يمن ابن بركات الحسيني الهاشمي: أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين، ولد في الآستانة، أمضى بقية حياته منفياً في جزيرة قبرص سنة (١٩٢٥) فأقام ست سنين ومرض فيها، ثم سمح له الإنكليز بالعودة إلى عمان، ومات فيها، فحمل إلى القدس ودفن في المسجد الأقصى. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٤٩-٢٥٠.